# هـــان الود

## أربع قصص طويلة

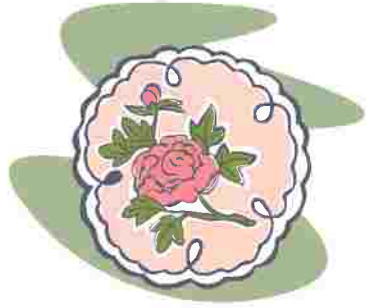

عصام عبد الحميد

اسم الكتاب: هان الود
المؤلـــف: عصام عبد الحميد
الصف التصويري: الندى للتجهيزات الفنية
إخراج داخلي: مركز السلام للتجهيز الفني عبد الحميد عمر ٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧
الطبعة الأولى للناشر: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
مقاس الكتاب: ١٢ × ٢٠
عدد الصفحات: ٢٢٤
التوزيع والنشـــر: دار البشير للثقافة والعلوم القاهرة – مصر
تليفـــــــــون: ٠١٠٦٧٤٦٧٤٩٢-٠١٠٦٢٨٣٦٤٦١
darelbasheer@hotmail.com
dar_elbasheer@yahoo.com
الإيداع القانوني:
الترقيم الدولي:

**جميع الحقوق محفوظة**

**يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، والنقل والترجمة ، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطى من دار البشير للثقافة والعلوم**

# إهـداء

إلى أبي وحبيبي الحاضر في حنايا العمر

محمد حنفي

كنت طفلا لم أتجاوز الثامنة من عمرى

حين أخذوني إليك لأقبل يدك وجبينك

وأنت ممدد تحتضر

ثم ذهبوا بي بعيدا

سألت عنك فقالوا أنك سافرت

وانتظرت طفولتي عودتك

ومرت الأيام ودارت الحياة دورانها القاسي

وأنا أستقبل عامي الخمسين

أتعجب من ذلك الطفل الذي

تعلو وجهه ابتسامة اليتم الحزين

ينتظر عودتك.

# هان الود

[ ١ ]

أضاءت شاشة الهاتف المحمول معلنةً بموسيقى حالمة عن وصول رسالةٍ.. خفق قلب منى خفقةً ممزوجة بالحبِ والخوفِ والترقبِ.. تناولت الهاتفَ.. ابتسمت وهزَّت رأسها هامسةً: مجنون.. أعادت قراءة الرسالة.. ( حبيبتي.. جهزت كل شيئ للرحيل وسأكون جاهزا عند الفجر.. هل أنت مستعدة لنكتب معًا تاريخًا جديدًا لحياتنا؟ ).

اهتزت الصور من خلال دموع تدفقت من عينيها.. أسرعت بمسحها.. لم يعد هناك مجال للتردد.. (حبيبي.. سنكتب غدا أروع تاريخ لحياتنا.. حتى ولو كانت لحظة واحدة في العمر معك.. تكفيني).

جاءتها رسالته بسرعة فائقة: أحبك.

رقص قلبها سعيدًا برغم أنه مسجون بالخوف.. كتبت:

- تعرف ما الذي يجذبني إليك؟

- ماذا؟

- جنونكَ.

[٢]

تمدَّد مصطفى في فراشه محاولاً النوم.. مازال أمامه ست ساعاتٍ كاملةٍ على الأقل.. ولكن من أين يأتيه النعاس؟ تقلب كثيرا.. دون تفكيرٍ في شيءٍ محددٍ.. كأن شيئًا خطيرًا فاصلاً لن يحدث صباح الغد.

في الشرفة الكبيرة.. نسمات صيفية حانية تداعب خصلات شعره الكثيف الذي غزاه الشيب فأضفى عليه الكثير من الوسامة والجاذبية.. تطلع للأضواء تتراقص على صفحة النيل الذي يسير في رحلته منذ الأزل بلامبالاةٍ بليلٍ أو نهارٍ.. بصخبٍ أو هدوءٍ.. بضحكٍ أو دموعٍ.. تهاوي على مقعده المفضل.. متنهدا.

في الوقت الذي بدا له أن يتهيأ للراحة من عناء رحلته الطويلة.. كان على موعدٍ آخر لرحلةٍ أخرى.. ما أعجب الحياة.. يظن الناس أنهم سيرتاحون عندما يخلدون للسكون.. أما هو فقد اكتشف أنه لن يحصل على الراحة إلا بمواصلة المسير.. لم يكن القرار بلا شك سهلاً.. أو يسيرًا.. ولكنه بدأ بحلم يقظةٍ كان يلجأ له ليرتاح من عناء الحياة وقسوتها.. ذبالة من الضوء متناهية الصغر أضاءت بداخله وظلت تكبر وتتشعب في كيانه حتى قرَّر أن ينظر

لهذا الحلم من زاوية أخرى.. عندما تساءل لماذا لا يتحوَّل هذا الحلم إلى حقيقة ؟.

تجول في البيت الذي يحمل ذكريات رحلة العمر.. يلمس كل شيءٍ بيده.. يمر عليه.. يتحسسه بحب شديد.. يشمه بولهٍ وعشقٍ.. يتذكَّر أحداثًا كأنَّها وقعت للتوِّ.. كان يستعيد الأحداث كأنه يشاهد فيلمًا حيًّا بالصوت والصورة.. اختلطت ابتسامات بدموعٍ بضحكاتٍ ببكاءٍ.. مصحوبة بدقات قلب مرتعدة ملتاعة حزينة.. ما أصعب ما سيقدم عليه.. ما أقساه على نفسه.. ولكن هل هناك طريقا آخر كان يمكن أن يسلكه؟.

توقف طويلا أما الصور المعلقة على الجدار في صدر الصالة الواسعة.. أخذ يتأملها الصورة الأبرز والأكبر لوفاء.

وفاء.. زوجته.. رفيقة الرحلة.. مازال الحنان يتدفق من نظرة عينيها برغم مرور السنوات على غيابها.. الصورة تكاد تنطق معبرة عن شعور جارف بالود والحب ومباركة للخطوة التي سيتخذها.. يتغير الزمن.. ويتغير الناس ويتبدلون إلا هي.. منذ أن أحبها وتزوجها وهي بنفس النقاء.. والعطاء.. واللهفة.. والاهتمام.. هي هي.. بنفس سذاجة البنات اللائي لم يعرفن الحياة إلا من خلال أزواجهن.. فإذا ما غاب الزوج لسبب ما ترتبك الحياة.. كأنها

طفل خائف متردد يريد عبور طريق مزدحم بالسيارات.. فإذا ما عاد الزوج ابتسمت لها الحياة وابتسمت لها.

أنجبت له ثلاث بنات وولد.. وسهرت على رعايتهن حتى كبروا.. كانت أحلامها كبيرة بأن تكمل رحلتها معهم.. مازال كذلك يتذكرها في مرضها الأخير حين كانت تقبل يده وهي تبكي.. وتطلب منه أن يسامحها لأنها انشغلت بالبنات عنه كثيرا ولم تستطع أن توفي وعدها له بأن تتفرغ له بعد زواج البنات ليستعيدا معا أيام الشباب الأولي.. وفاء حبيبة العمر التي لا تستطيع أن تنام في غيابه ولا يمكن أن تنام إلا في حضنه.. ولا تترك للحظة خصام مهما كانت صغيرة أن تستمر أبدا بينهما.. افتقدها كثيرا.. فرغت الحياة بغيابها.. وأحس بحزن هائل لم يستطع أحد أن يعوضه حتى الآن.. سيطرت عليه مشاعر بحار انكسر شراعه وسط بحر متلاطم الأمواج ضاعت شواطئه.. كان عليه أن يقف متماسكا قويا أمام الجميع.. بينما لحظات ضعفه فقد انفردت به ونادمته هي ودموعه سنوات بلا يد حانية ترفق به ولا حضن دافئ يضمه.

ناهد.. الدكتورة ناهد.. نظرة عينيها المطلة من الصورة في حفلة تخرجها تحمل عناد البنت البكر وتسلطها.. أول من منحته شرف الأبوة.. وأول من فجرت بداخله ينابيع الأبوة الحانية..

ظلت عاطفته ناحيتها استثنائية.. حزنه الآن منها يظل استثنائيا في ألمه. ولدت متميزة.. متفوقة.. حققت كل أمانيه فيها.. وبالمقابل كانت تعرف أنها اكتسبت دلالا خاصا.. ودرجة في مقام البنوة تؤهلها لأن تأمر بما تريده وتشتهيه.. وهو في منتهى السعادة بتلقي الأوامر وتنفيذها عن طيب خاطر.. كان خصامها صعبا عليه وفوق احتماله على الصبر.. تتدلل وتتيه بحب أبيها لها.

تتصدر الصورة في حفل زفافها بجمال أخاذ يخطف الأبصار والألباب.. زوجها يقف خلفها وعلى وجهها ابتسامة يراها الآن غريبة.

كانت ناهد هدفا لشباب كثيرين.. ولكنها اختارت بعناية زوج المستقبل.. ذلك الرجل الذي يوافقها دائما.. ولا يرفض لها طلبا.. حبا.. خوفا.. طمعا.. لأي سبب المهم أنها نالت ما تريد.. كما أنه فيما يبدو سينال ما يريد.

من بين شباب عائلات كبيرة التقطت هذا الزوج.. كانت تقول أنها تريد زوجا مثل أبيها.. في حبه لها وعطائه الحاني.. ويبدو أنه كانت تبحث عن وجه واحد للشبه.

لم تنتبه للمسافة الكبيرة بين رجولة أبيها ورجولة زوجها.. انتبهت فقط لهذه المسافة حين خالفها أبيها لأول مرة في حياته

ورفض لها أمرا.. كانت صاعقة بكل المقاييس.. بسبب ذلك أعلنت عليه حربا لا هوادة فيها.. كان ينظر إليها في ذهول وهي تصرخ في وجهه متوعدة ومنذرة.. كان الانكسار الأخير والكبير في علاقتهما حين أعلنت أنها ستقيم عليه دعوى بالحجر عليه.

مازال يحبها.. لا يمكن أن ينكر ذلك.. ذلك أمر خارج حدود إرادته.. ولكن جرحها كان بليغا.. بدرجة توازي كل الحب الذي حمله لها.. منذ تلقاها بيديه طفلة صغيرة.. تمادت في التطاول عليه مستقوية بحبه لها.. لم تعر انتباها لحجم الجحود والنكران والألفاظ التي تلفظت بها في غضبها.. هشمت بقسوة كرامته ووضعته في مقام صغير جدا لا يليق بمقام الأبوة ولا بما قدمه لها طول حياتها.. ولا باحترامه أمام شقيقاتها وأزواجهن وجميع الأقارب.. حمد الله أن زوجته لم تحيا لترى هذا اليوم البغيض.. لم تكن لتتحمل أبدا أن يحدث له هذا.

مسح دموعا تعود عليها سالت على خديه وهو يولي وجهه عن صورة ناهد لينتقل إلى صورة عزة.

الأستاذة عزة.. تحمل عيون أمها المتدفقة بالحنان.. جمالها هادئ مريح.. من صغرها وهي تحب التدريس.. عاشت طفولتها في دور المعلمة فتشرح كل شيء وتحلله.. حتى أنها كانت تذاكر كأنها في

فصل فتقف على سبورة تضعها في غرفتها وتتخيل أنها في فصل وأمامها تلاميذ وكشف درجات فتشرح وتتوعد وتضرب.. وفي النهاية تنجح بتفوق.. ورغم مجموعها الكبير إلا أنها اختارت كلية التربية لتتخرج معلمة.

عزة.. تمارس الشرح والتفسير لتبرر كل مواقفها الغير محددة.. لا تحب أن يغضب منها أحد.. تجيد إرضاء جميع الأطراف.. لأول مرة توضع على محك قاسي حين حاصرتها ناهد حتى تحدد موقفها بوضوح إما أن تكون في صفه.. أو تكون ضده.. رفضت عزة وبقوة كلمة ضده.. فغيرت ناهد الكلمة بذكاء وقالت إما أن تكون في صفه أو تكون في مصلحته.. فاختارت أن تكون في مصلحته.. وأخرجها اللفظ من حرج بالغ.. وافقت مبدئيا على قضية دعوى الحجر بحجة أن ذلك في مصلحته حتى لا يبدد الثروة.. حكاية الثروة هذه أعجبت زوجها جدا فوقف بجانبها وبنفس طريقة الشروح والتفاسير أقنعها بأنها تقف إلى جانب الحق.

هز رأسه بأسى نتيجة لموقف عزة منه.. بالرغم من معرفته لشخصيتها إلا أنه لم يتوقع أن تنحاز لناهد بهذا الشكل.

عادل.. المهندس عادل.. الطائر المهاجر.. الولد الوحيد ابن أمه وحبيبها.. لا علاقة له بأي شيء.. لا يطلب شيئا.. ولا يبدي

رأيا في أي موقف.. لا يضع نفسه أبدا في موقف يختار فيه بين شيئين.. حتى كلية الهندسة التي دخلها كانت اختيار أمه منذ أن وعى على الدنيا وهي تناديه الباشمهندس عادل.. لا تعرف له هواية محددة.. ولا أحد يعلم على وجه التحديد ماذا يحب وماذا يكره.. إلا أنه بشكل عام واجهة مشرفة لأي أسرة.. خلقا وأدبا وعلما.. من أول يوم تزوج فيه ألقى بكل حموله بين يدي زوجته تقود حياتهما كيفما شاءت.

يعمل في دبي منذ أكثر من عشر سنوات.. غائب تماما عن أخبار العائلة.. وحين انفجرت الأحداث لم تستطع ناهد أن تستقطب زوجته لغيرة خفية بينهما.. وبالتالي لم تستطع أن تأخذ عادل في صفها.. إلا أن زوجته كانت تؤيد ناهد بينها وبين نفسها ولكن لا تريد أن تمنحها القيادة الكاملة للعائلة.. وبدأت في دفع عادل لأخذ موقف يكون متصدر المشهد فيه.. إلا أن ذلك أربك عادل جدا مما جعل صورته باهتة جدا.

التفكير في أن يكون الولد سنده الكبير في الحياة حلم ولد ميتا.. ولذلك كان أقصى طموحه أن يقف على الحياد.. أن يقول لأخته ولو لمرة واحدة عيب أن نفعل هذا بأبينا.. لكنه بضعفه نال نقمة أخته الكبرى وتطاولها.. ونال دموع أبيه الغزيرة على خذلانه له.

وفاء آخر العنقود.. جاءت في لحظة حب غافلة بين الزوج والزوجة.. جعلت الأم تخجل كثيرا من بناتها حين بدأت بطنها تتكور بالحمل وتكبر.. كانت لفتة جميلة من الزوج حين أطلق اسم وفاء على آخر العنقود إكراما ومحبة لزوجته.

وفاء الابنة غاية في النقاء والرقة والهدوء.. تحولت في لحظة إلى قطة متوحشة.. لم تتطاول ولا مرة على أبيها.. ولكن ناهد استغلت حالة الغيرة الطبيعية للبنات في هذه مرحلة المراهقة لتحول وفاء إلى تلك القطة الشرسة لتفترس بها صاحبة الصورة الغائبة.. منى.. وتتمادى في التطاول عليها حتى طردتها من البيت.

***

[ ٣ ]

تُشغل منى نفسها بترتيب حقيبتها ومراجعة أشياءها للمرة الألف في محاولة لطرد القلق والاضطراب اللذان يسيطران عليها.. لم يتبق سوى سويعات قليلة تنقضي لتبدأ تلك الرحلة في حياتها والتي لم تخطر لها على بال من قبل.. تتمدد في السرير في محاولة لأن تغفو قليلا.. فتطالعها ذكريات الحياة.

كانت في الخامسة من عمرها حين تقدم مصطفي رأفت المحاسب بالغرفة التجارية للزواج من شقيقتها الكبرى وفاء.. كان

في الخامسة والعشرين.. ينحدر من عائلة كبيرة ميسورة الحال.. تعلقت به من أول يوم دخل فيه منزلهم.. بل وكانت تعتبره خطيبها دون أختها وفاء.. وكانت غيرتها عليه والتصاقها به محل تندر وضحكات العائلة كلها..

المحاسب مصطفى رأفت.. رجل بهي الطلعة.. تعلو وجهه وسامة لافتة.. وابتسامة هادئة دائمة.. بياض وجهه مشرب بحمرة يضعه في مصاف البشاوات.. جسده رياضي معتدل.. لايمكن أن تنسى وهي طفلة صغيرة كيف كانت مبهورة به.. تتأمل أصابع يده المتناسقة وأظافره النظيفة والمقلمة باعتناء.. طريقة كلامه.. تناوله للطعام.. وعطوره الأخاذة التي كان يضعها على ملابسه.. رأت بعينيها قصة حب كاملة بينه وبين أختها.. كيف كان يعاملها برقة وحنان.. ويغرقها بهداياه.. لم تكن غيرتها تتجاوز أكثر من كونها طفلة.

ارتبطت منى بأختها وزوجها ونشأت وترعرعت بينهما فكانت تقضي أغلب أيام طفولتها في بيت أختها.. وصارت من صغرها تناديه مصطفى هكذا مجردة تقليدا لأختها.. وكانت طريقتها في مناداته بإسمه ظريفة ومحببة ومقبولة من الجميع.

صار مصطفى بالنسبة لها في صغرها كالأب.. وغرقت في حبه

وحنانه الأبوي حتى بعد أن أنجب ناهد كبرى بناته.. ثم تحول في فترة مراهقتها إلى أخ.. تحمل الجزء الأكبر من استيعاب تحول وتمرد البنات في هذه المرحلة وساعدها كثيرا في المرور منها بسلام خاصة أنها كانت تستمع لنصائحه دون الآخرين.. اختارت كلية التجارة لتكون محاسبة مثله.. ثم تحول إلى النموذج الذي تقيس عليه كل من تقدم لها من الرجال للزواج منها.. وهنا بدأت كبرى مشكلاتها والتي أخرت زواجها.

حين وصلت لسن الخامسة والثلاثين كان قد تقدم لها خطاب كثر.. ثلاث خطبات تمت بشكل رسمي ثم فشلت جميعها بسبب ذلك القياس الذي تبنته مشاعرها.. ولكن أنّى أن تجد رجل مثل مصطفى رأفت.

ماتت الزوجة ومنى تستقبل السادسة والثلاثين.. وخيمت رائحة الحزن والموت على الحياة.. وتزلزلت سفينة العائلة وارتبكت في بحر متلاطم من هول المفاجأة.. لولا منى التي حملت على كاهلها إخراج الأسرة من حالة الحزن الكبيرة التي خيمت على الأسرة كلها.. ساعدها على ذلك وجودها الطبيعي داخل الأسرة وارتباط البنات بها ارتباطا قويا.

بعد عدة أيام من وقوع صدمة رحيل الأم تحدثت ناهد وعزة

أن لأبيهم حقا فيهما بالرعاية خاصة أن وفاء مازالت في الصف الثالث الإعدادي.. وبدأتا في ترتيب أيام يتبادلانها بهمة ونشاط ما لبث أن فتر لاكتشاف كل منهما أن تلك الرعاية تحتاج لمجهود كبير خاصة في وجود زوج وأولاد وعمل صباحي في الطب والتدريس.. وبعد السكن.

ظهرت منى بتلقائية مريحة في تلك اللحظة.. فهي تقريبا متفرغة ووجودها طبيعي في حياتهم فضلا عن أن منى تذهب عادة أغلب الأيام في الصباح فترتب البيت وتطبخ للأب والإبنة وتنصرف قبل أن يأتيا.. وهذا الأمر أراح ناهد وعزة نفسيا وبدأتا في الإقلال من التواجد في البيت وأصبح الاطمئنان عن طريق الهاتف هو الشكل الأساسي للرعاية باستثناء يوم الجمعة والتي كانت تتجمع فيها العائلة كلها مع وجود منى.

كانت منى تشعر بمتعة خاصة وهي ترتب أشياء مصطفى.. عاطفة جياشة وطرب ممتع لا تدري كيف يغزو مشاعرها بكل هذا السحر عندما تدخل غرفته.. بلا وعي كانت تستنشق أشياؤه وتضمها.. وتتعامل معها بعناية خاصة.. فتترك وراءها قدرا كبيرا من الدفء يشع في غرفته.

لم تفكر منى طول حياتها أن يكون مصطفي سوى زوج

أختها.. حتى بعد موت وفاء.. لم يرتق تفكيرها أن تكون بديلة لأختها.. غير أن للحب أوامره الخاصة.. وبذوره متناثرة في أرض قلبها منذ سنوات عمرها الأولي وقد بدأت البذور في الارتواء من يوم أن دخلت غرفته.. صحيح أن وعيها لم يفكر في ذلك ولكن متعتها الخاصة في الاعتناء والاهتمام به جعلت زهور مشاعرها تتفتحُ وتطلقُ عبيرها في حياتهِ.

***

[٤]

عينا مصطفى رأفت تتطلعتان للمكان الخالي من البرواز الذهبي الذي كان يحمل صورة منى مبتسما ابتسامة ساخرة وهو يحدث نفسه قائلا: اختفت صورة منى من البيت.. ولا يعلمون أنها موجودة في كل ركن من البيت.. هنا لعبت طفلة صغيرة.. وهنا ترعرعت وكبرت.. هي بالفعل كانت جزء أصيل من حياتنا.

عاد لتجواله في البيت يتفقد مواضعه.. وصورة منى هي الأوضح في ذهنه.. بعد وفاة زوجته كانت منى الحاضرة الغائبة في حياته.. لم يكن يراها كثيرا ولكن أثارها في البيت كانت موجودة.. في كل شيء.. كانت تعرف تقريبا كل ما يفضله من الأطعمة

وتتفنن في صنعه.. ترتب أشياؤه بعناية دافئة.. كل احتياجاته جاهزة حيث يشتهي.. عطر شفيف يغلف غرفته وفراشه وملابسه لم يخف عليه أبدا.

كان الحزن كشمس المغيب.. مقدمة لليل طويل بارد.. وككل الليالي يعقبها خيوط ضوء تتسلل للكون سرعان ما تتنفس بالحياة.. كانت منى هي الشمس التي تنفس ضوءها من خلف غيوم الليل فأشرقت في حياته بعد ليل طويل تجاوز العامين من غياب وفاء زوجته.

بعد خطبة صغرى البنات بدأ يفكر في الوحدة التي تتربص به بعد زواجها.. مشاعر حيرى متضاربة واحتياجه لوجود امرأة في حياته يغزوه بقوة.. اتجه تفكيره بتلقائية لمنى.. ربما عانى كثيرا من فكرة أن تكون منى امرأته وأن يمارس معها الحب.. لم يتخيل أن تكون أنثاه ولم يرها أبدا في هذا الموضع في الحياة.. إلا أن رسائلها الأنثوية بدأ يراها من منظور مختلف حتى ملأت كيانه وغيرت نظرته لها وبدأ يستقبلها بوجه جديد.

في حفل خطوبة وفاء جاءت منى.. شعر أنه يراها للمرة الأولى.. ارتج جسده من السعادة حين التقت عيناهما في ابتسام هادئ جميل أخفى وراءه شيئ ما تعرفه القلوب فقط.. التقت

نظراتهما عدة مرات.. خفق قلبه واحمر وجهها.. لأول مرة يلحظ قوامها المائل قليلا لامتلاء متناسق.. رشيقة الحركة موفورة بالبهجة تملأ الحفل الصغير بحكايات مبتسمة.. الجميع يحبها ويلتف حولها.. كأنها روح تسري شيئا فشيئا في جسد ميت لتهبه الحياة.. وسعادة غامرة كموسيقى هادئة تسري في كيانه لم يشعر بها منذ رحيل وفاء.

في تلك الليلة لم ينم حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل.. شيئ ما أقوى منه يدفعه للاتصال بها لا يستطيع أن يسيطر عليه أو يوقفه.. وباندفاع نزق لايتناسب مع وقاره اتصل بها..

- ألو

- منى؟

- مصطفى؟

- مازلت مستيقظة؟

- نعم.. وأنت؟

- نعم أنا مستيقظ.

- على غير عادتك.

- وأنت كذلك على غير عادتك.

شعر أنها تبتسم:

- لماذا تبتسمين؟

- وما أدراك أني أبتسم؟

- الابتسامة الجميلة لا تفوت على مشاعري بدون أن أشعر بها.

خفق قلبها بسعادة لم تشعر بها مطلقا في حياتها.. لم تستطع أن ترد فواصل مصطفى:

- أنا فقط أردت أن أشكرك على اليوم الجميل الذي قضيناه معا.

- العفو.. أنا أستمد سعادتي من وجودي بينكم.

سكت قليلا كأنه يريد أن يقول شيئا.. أحست به متردد قليلا..

- منى.

خفق قلبها بشدة من طريقة نداءه لها.. قالت هامسة:

- نعم.

- تعرفين أن وفاء ستتزوج بعد فترة وجيزة.. وكنت أريدك أن تعتني بها اعتناء خاص.

- هل توصيني على وفاء؟

- لم أقصد.. أعرف أنك تهتمين بدون توصية ولكن...

- لا تشغل بالك بوفاء هي في عيوني.. أم أنك تريد أن توصيني على أحد آخر؟

شعرت أنه يبتسم فواصلت:

- لماذا تبتسم؟

- وما أدراك أني أبتسم؟

ضحكا كثيرا لهذه المقابلة في حديثهما.. ثم ساد صمت بينهما قليل ثم قالت ملطفة الجو:

- تريد أن أبحث لك عن عروس؟

ضحك قائلا:

- هل تعتقدين أن امرأة توافق على الزواج من رجل أرمل مقبل على الستين من عمره؟.

أرادت أن تصرخ ليسمعها الكون.. أناااااااااااااااااااااا.. ولكنها تماسكت:

- أي امرأة في الكون تتمنى أن يكون لها زوج مثلك.. أنت لا تعرف قدرك.. قل لي فقط على من تريدها وآتيك بها في لمح البصر.

أراد أن يقول لها.. أنت ولو همسا ولكنه خاف.. وبرغم ذلك فقد انتشى من إطرائها:

- أشكرك على كلماتك الجميلة.. ولو أن الشكر لن يكفيك أبدا أمام ما قدمتيه لنا في غياب وفاء.

- العفو.. لا تقل ذلك وعموما إطمئن لن أترك الاعتناء بالبيت حتى بعد زواج وفاء.

شعر أنها تريد تقول له: اطمئن لن أترك الاعتناء بك.. أما هي فقد كانت تريد أن تقول له: اطمئن لن أتركك أبدا ولكنها خجلت.

***

[٥]

مصطفي يخاف.. نعم يخاف بعد هذا الاقتراب بينه وبين منى أن يكون قد بنى ناحيتها أحلاما في الهواء.. ويخاف أن يكلمها مباشرة فيعتصره ألم جديد في حياته لو رفضت.. ويخاف أن يتحدث مع البنات متحرجا أن يقفن في طريق سعادته.. ويخاف من نفسه.. فقد بدا له في أحيان كثيرة من طول أيام الوحدة أنه غير قادر على القيام بواجباته كزوج ناحية منى.. يخاف وهو الكبير.. يخاف وهو القوي.. يخاف وهو الذي يهاب منه الجميع.. حتى

أورثه الخوف حزنا فوق أحزانه.. لم يكن يخرجه من تلك الأحزان والمخاوف إلا الاتصالات الهاتفية بينهما.. التي كانت تقطع مخاوفه لسويعات قليلة لتدخله في حديقة وارفة الظلال من الأمان والثقة في نفسه وقدرته على مواصلة الحياة.

كانت الأحاديث بينهما جميلة ورقيقة تقطع سكون الليل الموحش بعبير حميم جعلتهما يدمنان تلك اللحظات بل وينتظران أن تدق الساعة معلنة عن انتصاف الليل حتى يبادر مصطفى بالاتصال.. وإذا تأخر قليلا تتحول ثواني الانتظار في قلب منى إلى وجع قلق حائر.. وفي كل مرة يدفعها قلقها للاتصال تجده يتصل.. صوته الوقور يملأ كيانها ببهجة بديعة لاتستطيع وصفها.. تجعلها في بعض الأحيان تبكي.. شعوره بدموعها يجعل قلبه يدق بلوعة مشتاقة متمنيا أن تكون أمامه فيضمها إلى صدره.

اقتربا أكثر وأكثر وجدانيا دون أن يقترب خطوة واحدة في الطريق الطبيعي الذي تنتظره منى.. كان يريد أن يطمئن ويتأكد بشكل قوي لموافقتها.. ولكنه مع ذلك كان مترددا من الاقتراب من تلك الخطوة.. كانت منى متفهمة لتردده فأخذت تلمح له بطرق كثيرة غير مباشرة.. صابرة على غير عادة النساء على تردد الرجل.. فقد كانت مكانة مصطفى بداخلها أقوى بكثير من أن

ينفد صبرها عليه.. ولكن الذي لا صبر لها عليه حبها له الذي أخذ يكبر ويتوهج ويتشعب في حياتها حتى ملك عليها أمرها.. مشاعر تلح عليها وتدفعها دفعا حتى قررت أن تمد يدها لتخرجه من ليل حياته الطويل إلى ضياء الحياة الجميلة معا.. لتدرك معه ذبالة من رحيق شباب العمر الذي يوشك على الرحيل.

أغمض مصطفى عينيه متسائلا بينه وبين نفسه وهو مضطرب الوجدان.. هل يعرف أحد على وجه التحديد ماالقوة الهائلة التي تتدفق من حروف الحب؟ وماالتفسير المنطقي الذي يأخذ الحياة لطريق السعادة بمجرد أن تتناثر الاعترافات كزهور الياسمين؟ لم يشعر أن منى أقوى منه حين اعترفت له بأنها تتمنى أن تقضي بقية عمرها معه.. ولكن الحياة تحتاج أحيانا للحظة ضعف أنثوية جميلة لنتقوى بها.. لنستدل بها.. لتمنحنا قوة هائلة تدفعنا للحياة.

اعتراف منى لمصطفي بدد مخاوفه كلها دفعة واحدة.. من ناحيتها إطمئن تماما.. الطرب الذي أصاب جسده وهو يسمع كلماتها جعله يشعر أنه مراهق يستقبل الحياة بعنفوان شبابي حارق.

بدت الحياة السهلة والجميلة على بعد خطوات قصيرة منه.. جلس مع نفسه هادئ البال يفكر بهدوء في كيف سيبدأ أولى خطواته لتحقيق حلمه الجميل.

كان قلب مصطفى يخفق بقوة وهو يخطو ناحية بيت ناهد مبتسما من الارتباك الذي يشعر به كلما تخيل نفسه بقامته المديدة أمام ابنته التي حملها بين يديه صغيرة ليستأذنها في الزواج.. بنفس الابتسامة البادية على وجهه أخذ يستعيد الكلمات التي حفظها طول الليل والمقدمة التي سيبدأ بها الكلام مع ابنته.. كان يحلم بأن يذهب لمنى هو والبنات ليفاجئنها بفيض من الحب حين يطلبن منها الموافقة على الزواج من أبيهم.. لا يعرف حتى الآن ماذا سيكون رد فعل البنات ولكنه على كل حال ناهد أقرب بناته إليه والتي بموافقتها سيوافق الجميع بالتأكيد.. ليلة أمس فكر في كل الاحتمالات والأسئلة وردود الفعل وجهز لكل سؤال محتمل رده.. كان مصطفى معتمدا بشكل كبير على طبيعة العلاقة بينه وبين ناهد.. ولكنه لم يستطع أن يمحو القلق والتوتر الداخلي الذي أصاب قلبه.. إلا أنه طمأن نفسه بأن هذه أشياء طبيعية لهذه المرحلة العمرية التي يطلب فيها الزواج وخاصة أنه يحدث فيها ابنته على غير ما يحدث عادة من أن يكلم الصغير فيها الكبير.

استقبلته ناهد بترحاب كبير.. عانقها بحرارة بادية.. جلسا يحتسيان الشاي ويتحادثان في أمور شتى.. ثم صمتا قليلا تنحنح خلالها مصطفى باضطراب لمحته ناهد فسألته مستفسرة.. شجعه

سؤالها قليلا فبدأ يحدثها عن زواج وفاء القريب واحتياجاتها والحياة في البيت بعد زواجها.. كانت كلماته متقطعة خجلة كلما بدأ في الاقتراب من هدفه في الحديث.. بدأت ناهد بذكائها تلمح ما يريد أن يقوله أبوها ويقترب منه ولكنها وبنظرة متربصة تركته غارقا في تردده.. حتى تنحنح قليلا قبل أن يقولها بوضوح أنه يريد أن يتزوج.

اللحظات التي تركته ناهد غارقا في لعثمته كانت قد جهزت مدفعيتها الثقيلة.. وحين سمعت لفظ الزواج كانت قد أعطت الإشارة بإطلاق قذائفها بلا رحمة ناسفة كل الاعتبارات التي يمكن أن تقال في هذا الموضع من الحياة.. المفاجأة عقدت لسانه.. تحجرت عيناه من الدهشة.. شعر في لحظة أنه كائن جمادي بلاشعور.. كانت تتكلم بصوت عال.. بكلمات مرتبة كأنها قد أعددتها.. سهام مسمومة صوبتها نحوه بدقة متناهية.. أخذت تطلق حممها في كل اتجاه.. احترم سنك الكبير.. ماذا سيقول الناس عن العجوز المراهق المتصابي؟ لن تدنس البيت امرأة عاشت فيه أمها.

يحاول مصطفى أن يوقفها.. الكلمات تتعثر في فمه.. فيشير لها بيد مرتعشة.. أراد أن يهدئها فقال بتلقائية ساذجة: إنها خالتك

منى.. ظنا منه أنها ستقف وتهدأ.. وأن الأمر كله عائلي.. ولكن ناهد واصلت بقسوة حارقة حين ألمحت بكلمات غامضة إلى شيئ ما يمكن أن يكون قد حدث بينه وبين منى من ورائهم.

لم يتصور مصطفى على الإطلاق حجم العاصفة التي هبت على حياته لتطيح بكل شيء.. رياح عاتية محملة بالأتربة والغبار.. جعلت مستوي الرؤية ينخفض إلى حد العدم.. شمعة الأمل الصغيرة التي أضاءت في حياته انطفأت بعنف.. ضاعت معالم الطريق واختفت إشارات الحياة.. لتحيله لكيان حائر.. كل الإجابات التي جهزها للرد على كل الأسئلة المحتملة دهستها ناهد بمفاجأتها التي لم تخطر على باله أبدا..

عاش حزنا فاق بكثير حزنه على وفاء.. لم يعد له قدرة على احتمال هذا الطوفان الهائل من الجحود.. حتى أوشك على الانهيار.. تلفت حوله يستنجد بمنى.. فلم يجدها.. اختفت فجأة من الحياة.. كأنها تبخرت.. وجد نفسه وحيدا أمام حرب ضروس استعرت ضده.. حين أعلنت ناهد بمساندة الجميع أنه لن تحتل امرأة مكان أمهم أبدا.. وأسرت واتفقت مع الجميع أن الميراث الكبير الذي سيتركه أبوهم لن يشاركهم أحد فيه.. حتى لو اضطروا جميعا لرفع دعوى بالحجر عليه.

حركت ناهد الجميع كقطع الشطرنج.. كانت آخر قطعة حركتها الصغرى وفاء والتي حاصرت بها الملك في حركة تفننت في التخطيط لها لتقول لأبيها ( كش ملك ).. ليقف وحيدا في الحياة تماما.

أين منى؟ سؤال مرير بلا إجابة.. لا أحد على وجه التحديد يعرف أين هي.. حتى البنات اندهشن من غيابها السريع والمفاجئ.. ولم يتوقعن أن تستسلم هكذا بسهولة وتتخلى عن أبيهم وثروته.

كل محاولات مصطفى في العثور عليها باءت بالفشل.. هاتفها مغلق.. كل الأقارب المحتمل وجودها عندهم لا يعرفوا عنها شيئا.. ساوره القلق حول غيابها بهذه الصورة وأخذته الهواجس كل مأخذ.. ففكر في التحرك الرسمي للبحث عنها.. وفي غمرة التفكير في هذا الأمر جاءته رسالة مفاجئة على هاتفه منها ( منى ماتت لا تبحثوا عنها.. اتركوها أرجوكم ) كانت رسالتها واضحة.. هكذا انتهت القصة كلها بالسكتة القلبية.. ووجد مصطفي نفسه وبدون مقدمات ريشة في مهب الريح.

مرت عليه أيام طويلة وحيدا في ساحة الحصار.. كره فيها الحياة وتمنى الموت لحظات كثيرة.. كيف تتركه وحيدا هكذا في

الحياة؟ كيف تتخلى عنه بسرعة تتجاوز لمح البصر؟ كان يشعر أحيانا أنه يكره منى لتخليها عنه بلا مقدمات.. يكاد رأسه أن ينفجر من المتاهة التي وجد نفسه فيها.. يدور ويبحث حتى يجد نفسه بعد مجهود مضني أنه عاد لنفس المكان.. حتى بدأ في الذبول والانزواء.. عدة شهور مرت.. وصمت عام يغلف علاقته ببناته.. تحاول ناهد كثيرا أن تقترب منه.. تهتم به خاصا دون التطرق للموضوع.. وجدار كبير يغلف هذا الاهتمام يحول بينه وبين تحقيق أمنيته.. تحاول عزة كثيرا أن تفتح الموضوع وتشرح وتفسر وتبرر إصرارهم على عدم الموافقة على الخطوة التي فكر فيها.. تشعر وفاء كثيرا بخطيئتها فتقترب منه دون أن تعترف له بما فعلته مع منى.. تضمه وتقبله كثيرا كأنها تعتذر عما بدر منها.. ولا يزيد أمام كل ما تفعله البنات عن ابتسامة باهتة وكلمات قليلة تبدو متسامحة.

يوم زفاف وفاء وقف بنفس الابتسامة الصامتة يتقبل التهاني من الأقارب والأصدقاء.. راوده الأمل كثيرا أن تتصل منى لتهنئه.. ولكنها لم تتصل.. تعلقت عيناه بمدخل الحفل يراوده أمل كبير أن تفاجئه بقدومها فيتخلى عن ابتسامته المرسومة فيخرجها من قلبه ضحكة مجلجلة تملأ الكون بسعادته الغامرة.. ولكنها لم تأت.. ثم حانت لحظة انصراف العروس إلى بيتها.. فندت من

عينيه دمعة لم يستطع كتمانها.. وضم وفاء إلى حضنه بقوة كأنما بهذا الحضن يودع الحنان.. وبكت وفاء.. ووقفت عزة مترددة دامعة.. أما ناهد فقد جذبت وفاء برفق من حضن أبيها وقبلتها وسلمت يدها لعريسها ليركبا السيارة إلى عشهما.

أصبح وحيدا تماما.. جاءت اللحظة التي كان يخاف منها.. ليالي كثيرة يقضيها مصطفى في البيت ساهرا لا يفعل شيئ تقريبا.. ولكنه يرقب بداخله اضطراب وخوف صغير بدأ من ليلة زفاف وفاء وأخذ يكبر كل يوم ليحتل مساحة من قلبه حتى كان ذات يوم ساهرا في الشرفة.. شعر بارتجاف من شيء ما لا يعرفه.. إحساس غريب جعل قشعريرة تسري في جسده واضطراب غريب سكنه.. أسرع إلى الراديو وفتح إذاعة القرآن الكريم بصوت مرتفع.. ظل مستيقظا طول الليل حتى أذن الفجر للصلاة.. ماهذا الخوف الذي أصابه فجأة من البيت؟

في محاولة للهروب من الخوف المتكرر الذي أصبح يصيبه في ليلا بدأ يسهر في الخارج ولا يعود إلا في ساعة متأخرة.. أصبح لا يطيق البيت.. الذي تحول إلى كهف مظلم مرعب.. بل ويشعر بضيق في نفسه كأن حجرا ضخما يجثم على صدره كلما دخل البيت.. يدخل من الباب فيلقي بنفسه على السرير.. لا يكلف

نفسه حتى عناء أن يبدل ثيابه.. ثم يستيقظ ليخرج من البيت يجوب الشوارع ليبحث عن شيء لن يجده.

البنات يرقبن في صمت ذبول الأب.. وانزواءه.. وصمته.. حاولن التقرب منه بشتى السبل.. بالعطف.. بالهدايا.. بالأحفاد.. لم تعد له رغبة في الإحساس بشيء لا يتكلم تقريبا أو يتفاعل مع أحد.. حتى أصوات البنات كان يشعر أنه يسمعها من بعيد.. يرد كثيرا بابتسامة لا معنى لها.

انهار النظام الذي تعود عليه طوال عمره.. وأصبحت حياته بلا طعم تقريبا.. حتى كانت ليلة جلس فيها على شاطئ النيل.. يتمني لليل أن ينقضي بسرعة.. فهو متعب جدا فقد سار اليوم مسافة طويلة حتى أرهق تماما فجلس على مقعد خشبي يرقب الأشياء حوله في سأم.. مرت عليه نسمة صيفية ناعسة.. فأخذته سنة لذيذة من النوم سرعان ما أخذته إلى نعاس عميق.

لم يدر كم مر من الوقت حين استيقظ على يد غليظة تهزه بقسوة جعلته ينتفض مذهولا.. فوجد ضابطا ومعه مجموعة من العسكر التفوا حوله.. طلب منه الضابط إثبات تحقيق الشخصية.

يحاول أن يتأكد أن ما يراه هو مجرد حلم سيصحو منه.. يهز رأسه في محاولة للاستفاقة فيجره مخبر إلى عربة الشرطة ليجد نفسه

مع مجموعة من المشبوهين والمدمنين.. سرعان ما وصلوا إلي قسم الشرطة ودفعه العسكر في الحجز بصورة مهينة.

عندما دفعه المخبر من ظهره إلى غرفة الحجز عرف أنه مستيقظ لا نائم.. بل وانتبه أيضا أنه نام طول الليل على مقعد النيل وقد أيقظته دورية شرطة قبل شروق الشمس بلحظات قليلة.

قضى مصطفى في الحجز ساعات من أصعب اللحظات في حياته.. حيث رأى نفسه لأول مرة في حياته بهذه المهانة والإذلال.. مرت حياته أمام عينيه بكل صورها وألوانها وهو صامت كالأموات.

في غرفة المأمور وقف أشعث الشعر مهمل اللحية رث الثياب.. يرى بعيون غائمة بناته وأزواجهن.. صور بلا ملامح واضحة.. أصوات باكية تحادثه لكن لها صدى كأنها قادمة من كهف عميق مظلم.. شخص يكاد يعرفه يصافحه بحرارة.. هل هو مأمور القسم؟ يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الوجه.. شعر بيد حانية تربت على كتفه.. هل هي يد منى؟ التفت.. إنها منى.. ابتسم.. مد يده في لهفة.. ارتج جسده.. كاد أن يقع فتلقفته يد ما.. ناولته قلما ليوقع على أوراق.

لا يدري مصطفى كم من الوقت مر حين استيقظ.. ليجد كل

شيئ حوله أبيض.. هل هو في المستشفى.. أم في الكفن؟ شعر بسعادة غامرة حين تصور أنه في كفن.. غير أن سعادته لم تدم طويلا فقد سمع أصوات حوله.. التفت ليجد البنات يقفن حوله وعلى وجوههن سعادة بادية لا تخلو من دموع.. ابتسم لهن للمرة الأولى منذ زمن طويل.. كم يحبهن على قسوتهن.. ترقرقت الدموع في عينيه وهو يسأل نفسه.. لماذا يأتينا الحب بكل هذه الأحزان؟.

[٦]

تحاول منى النوم.. لاتستطيع.. تعيد التأكد للمرة الألف من ترتيب أشياءها وأنها لم تنس شيئا في محاولة للإلهاء نفسها عن.. مشاعرها المتضاربة.. هل هي سعيدة أم خائفة؟ تعيد ترتيب الأحداث حتى تتأكد أن اللحظة القادمة هي النتاج الطبيعي لكل ما مرت به.. يطمئن قلبها قليلا من لحظات الخوف التي تحاول الانفراد بها.

الأحداث الحقيقية لا تبدأ عندها إلا من تلك اللحظة التي تفاجأت بها بصغري البنات وهي تنهش فيها بقسوة مدهشة.. تتطاول عليها باندفاع وتهور.. كأن العمر الذي عاشته في هذا البيت لم يكن له وجود.. انتهى في لحظة غدر على حين غفلة منها.

منى ترى أنها عاشت قصة حب مشروع مع مصطفى..

شعرت أن الأمل في أن تحيا ككل امرأة مع من تحب بات قريبا.. أن القدر عوضها عن سنوات الوحدة والانتظار بأروع هدية.. عاشت حلم جميل كُلِلَ بتبادل الاعترافات العاطفية النقية.. ولكنها تركت لمصطفى كرجل الخطوة الأهم في الحكاية.. لم يدم هذه المرة انتظارها طويلا فقد تحرك مصطفى.. عرفت فقط في اللحظة التى انفجرت فيها وفاء وطردتها من البيت وهي تشيعها بكلمات تذبح كرامتها.. فوجئت منى بسيل الشتائم والإهانات ينهال عليها.. لم تستطع الرد.. نظرت لوفاء متسائلة وهي في قمة صدمتها ماذا حدث؟ فأجابتها وفاء بقسوة بالغة: المرأة التي تفكر أن تأخذ مكان أمي سأقتلها.. أنت مجرد خالة عانس طمعت في أكثر من كونها كذلك.. هذا البيت لا تقربيه.. ولا تقربي أبي أبدا.. اخرجي من حياتنا.. تظنين أننا سنموت بدونك؟.

عرفت أن مصطفى تحدث مع البنات.. وأنهن يرفضنها شكلا وموضوعا.. وأن السكين الذي تذبحها به وفاء قد حد شفرته أختيها.. مادت الأرض تحت قدميها.. أحست أنها لاتستطيع الوقوف وأنها توشك على السقوط.. لم تعد ترى شيئا.. كل الأشياء حولها صارت بلا معالم واضحة.. حاولت التكلم.. خرجت الكلمات بلا صوت.. هل دفعتها وفاء لخارج البيت؟ أم أن شيئا ما

دفعها للخروج من البيت ومن حياة مصطفى؟ قررت منى في تلك اللحظة وبدون أي تفكير أن تختفي إلى الأبد.

لأول مرة تشعر أن صورة مصطفى تهتز أمامها هكذا.. تتساءل.. هل الرجل الذي عاشت تراه كبيرا وقويا ضعيفا إلى الحد الذي تتطاول فيه البنات عليها دون أن يخفن منه ودون أن يراعين مكانته وقيمته في العائلة شعرت أنه أخطأ حين تصرف وحده في حياتهما معا.. لتدفع وحدها الثمن من كرامتها التي عاشت مرفوعة دائما.. كانت تتوقع منه أن يرتبا سويا تفاصيل حياتهما معا.. هل كان يريد أن يفاجئها؟ هل توقع أن ترحب البنات بهذه الخطوة؟ لا تعرف.. الصور المثلى في حياتها اهتزت على مذبح كرامتها.. وكادت أن تنهار لولا بقية من عشرة طويلة متماسكة تسكنها وقفت حائلا دون انهيار الصور تماما.

[٧]

السكون يحيط بالغرفة والظلام يحاصرها.. حركة الممرضات خفيفة ورشيقة كالفراشات.. وأصواتهن هامسة ولكن حروف متناثرة من أحاديثهن تصله.. كلمات مختلطة لا معنى لها.. بين النوم واليقظة مسافة هائمة غائمة لا يعرف ماهي.. بهدوء ينفتح باب الغرفة فيتدفق الضوء الخارجي للغرفة المظلمة في المساحة المتاحة

خلف شخص ما فتح الباب.. يلتفت مصطفى بعيون ناعسة شاردة.. أيمكن أن تكون هي؟ نعم هي.. مد يده المرتعشة هامسا بلهفة:

- منى؟

جرت نحو يده فالتقطتها بكلتا يديها قبل أن تهوى ضمتها بحنان وقبلتها.. ابتسم قائلا بصوت بعيد:

- هل أنت حلم أم حقيقة؟

قالت بصوت واضح قوي:

- كما تريد يا مصطفى.

- خذيني إليك.. لا تتركيني

اقتربت منه هامسة برقتها الجميلة:

- عليك أن تجدني أولا.. بعدها سآخذك ولن أتركك أبدا.

- أشعر أنك حقيقة الآن.. لا خيال ولا أوهام.

- سأكون حيث تريدني وتشعر.

أغمض عينيه مستسلما للمسة يدها قابضا عليها بقوة واهنة يستشعر بكيانه حقيقة وجودها.

لا يدري كم من الوقت مر وهو على هذه الحال حتى غمر الضوء الغرفة كلها حين أزاحت الممرضة الستارة الكبيرة ليستقبل يوما جديدا في حياته.. بابتسامة عذبة قالت له الممرضة:

- الحلاق ينتظرك منذ ساعة.

تطلع مصطفى إلى صورته في المرآة فهاله منظره.. أغمض عينيه ثم فتحها ليتأكد أن الذي يشاهده في المرآة هو مصطفي رأفت.. منع بإصرار دمعة حاولت أن تفر من عينيه.. ثم أغمض عينيه تاركا الحلاق ليقوم بعمله.. أما هو فراح يستعيد وجه منى الحنون متسائلا.. هل جاءت حقا.. أم أنها كانت حلما؟.

ابتسامة خفيفة مرت على وجهه وهو يقول لنفسه.. كوني حلما أو حقيقة لن أدع حياتي تمر بدونك مهما كلفني الأمر.

[٨]

عاد مصطفي إلى الحياة مرة أخرى.. عاد إلى البيت كما كان في سابق عهده وخرج من دائرة الصمت اليائس وتعامل مع البنات بصورة أقرب لطبيعته التي عاش بها طول عمره.. وتفاعل مع الجميع.. التفت البنات حوله بحب وحنان يملأن حياته بقدر الاستطاعة.. ولكنه لم يستطع أبدا أن يمحو جرح ابنته ناهد له.. خاصة وأنها لم تبد أي ندم على ما فعلت.. بل أنه في أوقات كثيرة

يشعر أنها تعامله من منطلق المنتصر وأن ما وصل إليه نتيجة طبيعية لما تريده هي.. ومع ذلك كانت أكثرهن اهتماما به ورعاية له دون التطرق لهذا الموضوع من قريب أو بعيد.

عزة تعامله بحنان مبالغ فيه كتعبير عن ندم حقيقي داخلي.. وتبرر وتفسر وتعلل مواقفها منه أثناء الأزمة بطريقة فجة لا علاقة لها بما يدور بداخلها من حزن كبير عما بدر منها تجاهه.. تتحدث كثيرا مع أبيها لدرجة الملل ولكنه بصبر المحب يستمع إليها.. يود كثيرا أن تتوقف عن الكلام الذي تداري به أشياء يدركها جيدا ولكنه مع ذلك يتركها تمارس هواية التبرير كما تحب.

وفاء تعيش حالة من الحزن والندم الداخلي حقيقي.. ولكنها تخاف أن تكشف عن دورها الكبير والمباشر في اختفاء منى.. وتهم في أوقات كثيرة أن تعترف لأبيها ولكنها تتراجع خوفا من رد فعل أبيها.. الوحيدة تقريبا التي يستقبلها مصطفى بصفاء كبير يؤلمها ويوقظ ضميرها اللوام.. غير أنه كان يشعر أن إصرارا عام من البنات على موقفهن من زواج أبيهم سواء من خالتهم أو أي امرأة أخرى.. مبدأ لن يتنازلن عنه أبدا وأنهن على استعداد لرد فعل أقوى لو فتح الموضوع مرة أخرى ولولمجرد النقاش.. لأسباب كثيرة ظاهرة.. وسبب رئيسي خفي وهو الخوف على ثروة أبيهم أن تضيع.

تابع عادل كل ما حدث بالهاتف بشكل رئيسي.. وتواجد في مصر أثناء وجود والده في المستشفى.. وأبدى انزعاجا شديدا على حالة والده الصحية والنفسية ولكنه وقف كعادته حائرا لا يدري ماذا يفعل.. أو ماذا يقول.. إلا أنه لم يتوقف عن الاتصال بأبيه بعد عودته لأعماله للاطمئنان عليه بشكل يومي.. وهكذا استقرت الحياة في الظاهر.. لكن شيئا بداخل مصطفى مازال يرفض الاعتراف بغياب منى.. شيئ يدفعه بقوة لمعاودة البحث عنها.. كان يشعر أن منى بالرغم من بعدها وغيابها في منتهى القرب منه.

[٩]

في الشرفة الكبيرة يجلس على كرسي مريح.. يغوص بعينيه في صفحة مياه النيل الرائقة.. يحاول أن يستمد منها قدرا كبيرا من الهدوء لتستقر نفسه.. تنساب موسيقى هادئة من الراديو أنيسه المحبب في البيت منذ عقود طويلة.. أغمض عينيه واستسلم للسكون الجميل المحيط به وأخذ يستعيد كلمات مني حين جاءته في المستشفى:

- عليك أن تجدني أولا.. بعدها سآخذك ولن أتركك أبدا.

نسمة جميلة قوية حركت صفحة النيل الهادئة.. داعبت وجهه وشعره ببرودة صيفية محببة.. تنفسها بعمق.. ثم بدأ يفكر.. لماذا لا

أبحث عنها بطريقة مختلفة؟.

وفي المساء بدأ يبحث في أوراقها الموجودة في مكتبها الذي كانت تذاكر عليه وهي صغيرة.. وجد أوراق كثيرة خاصة بدور أيتام.. ودور مسنين.. وإيصالات تبرعات لجمعيات أهلية.. ومسودات رسائل قديمة كانت ترسلها لأصدقاء من هواة المراسلة ورسائل من صديقات الدراسة.. كذلك مسودات رسائل كانت متعودة وهي صغيرة أن ترسلها لبرامج في الإذاعة.. وألبوم صور وأوراق متناثرة بخط يدها.. جمع كل ذلك ووضعه على الأرض.

مرت ساعات الليل وهو منهمك في ترتيب أوراقها.. ففرق بين كل جهة تلقت منها رسالة.. ثم رتبها بالتواريخ من الأقدم للأحدث.. ومع أذان الفجر كانت ملامح جديدة لمنى بدأت تتضح أمامه.

بدأ بأحدث صورة موجودة لها كانت في حفل خطوبة وفاء.. خفق قلبه لابتسامتها المطلة من الصورة.. دَفَقَهُ من أشواق متجددة تعبُر مشاعره بقوة.. وشعور حسي لذيذ متدفق غمر رجولته كالشلال.. أخذ نفسا عميقا خرج من صدره بتنهيدة طويلة.

آخر رسائل التي تلقتها منى قبل رحيلها كانت من ثلاث دور للمسنين وداران للأيتام كلهم وافقوا للعمل بها كمتطوعة بدون

أجر.. أخذ ورقة وكتب فيها أسماء هذه المؤسسات وعناوينها.

عاد إلى الصورة مبتسما لها قائلا وقد اجتاحه نفس الشوق الحسي: سأجدك يا منى.. نحىَ الصورة.. ثم تناول رسائلها إلى برامج الإذاعة.. تفاجأ أنها ظلت تراسل برنامج ما يطلبه المستمعون لوقت قريب جدا من اختفائها.. راجع نصوص إهداءات الأغاني فوجدها موجهة لصديقات من أيام المراهقة.. ثم اكتشف أن هناك مجموعة من الأغاني العاطفية موجهة لحبيب لم تذكر اسمه الصريح ولكنها رمزت له بإسم ( صفصافة ) مرسلة بشكل متتابع في السنتين الأخيرتين قبل اختفائها.. توقف عند اسم صفصافة.. هل كانت تقصده؟ سؤال ساذج جدا لأنها بالتأكيد كانت تقصده.. ولكن لماذا لم تقل له أبدا عن هذه الإهداءات الإذاعية؟ ربما لديها أسبابها.. خاصة وأن هناك أغاني كثيرة مهداة له قبل أن يتصارحا بالحب.

اعتبر مصطفى أن النتائج التي وصل إليها مرضية على الأقل أفضل من لاشيئ.. ثم استقر على أن يبدأ في زيارة المؤسسات الأهلية.. متوقعا أن تكون منى تعمل في إحدى هذه الدور.. وبرغم إرهاق السهر إلا أنه أصر على أن يبدأ الآن.. أخذ حماما باردا منعشا واختار ملابسه بعناية كأنه سيراها اليوم.

انطلق بسيارته.. أخذ يتلو بعض الآيات القرآنية ثم دعا الله من كل قلبه أن يجد منى.. أدار مؤشر الراديو على البرنامج العام.. فوجد برنامج ما يطلبه المستمعون فتذكر رسائلها للإذاعة.. والأغاني الرومانسية التي كانت ترسلها لصفصافة بدأب كبير دون أن تقول له.. ابتسم ابتسامة كبيرة حين التقط عقله فكرة مذهلة.

[١٠]

انهماك منى في الحياة وانشغالها بالعمل التطوعي في إحدى دور المسنين والذي يلتهم ساعات عمرها لم يكن كافيا لأن تنسى أو تضمد جرحها النازف.. مازال يراودها حنين طاغ لأيامها الجميلة التي عاشتها في هذا البيت.. ومازالت آلامها قوية بنفس قوة حنينها.. مصطفى لم يغب عنها يوما.. حبه في قلبها صامد لا يتزحزح.. ممارسة منى لعملها بانهماك لم يمنعها من الاستماع لبرنامجها المفضل.. ما يطلبه المستمعون.. تستمتع بالإهداءات الجميلة بين الأحباب.. خاصة الغائبين والمغتربين منهم.. حتى تفاجأت ذات يوم بصوت المذيعة:

- وهذه رسالة رقيقة من صفصافة إلى حبيبته الغائبة منى ويهديها أغنية هان الود للفنان محمد عبد الوهاب.

قفزت منى صارخةً بهستيريا غير مصدقةٍ ما سمعته.. وانطلق

صوت عبد الوهاب الفخم يشدو بأغنيته الشَّجية: ( قالوا لي هان الود عليه ونسيك وفات قلبك وحداني ).. بكت منى بحرقة قائلة:

- والله ما نسيتك أبدًا ولا لحظة واحدة.. ولم يهن ودك عليَّ.. كل لحظةٍ أتمنى العودة إليك.. ولكن قلبي لا يطاوعني.. كرامتي المذبوحة مازالت تنزف ولا تريد أن تتوقف.

الإهداء الذي أرسله مصطفى لمنى قلب حياتها كأنه حجر ثقيل ألقاه في مياه حياتها الراكدة.. لم تنم ليلتها.. ولم تتوقف دموعها.. ولم يهتدي تفكيرها لشيءٍ تفعله.. لم تجد سوى الصلاة والدعاء أن تخرج من هذه المتاهة القاتلة.

بعد ثلاث أيامٍ من المعاناة استقرت منى على أن تتصل بمصطفى.. لم تعد تستطيع تحمل فراقه.. جاءت رسالته الإذاعية لتقوض كل القوة التي تترست بها للبعد عنه.. كلمات الأغنية كانت معبرة ومقتحمة انتقاها مصطفى بذكاءٍ عاطفيٍّ رائعٍ لتعيدها لمربَّع الحب والأمل مرةً أخرى.. الليلة ستتصل به في موعد اتصالهما القديم.. وعليها الترتيب لهذه المفاجأة.

جلست في مكتبها هذا الصباح مشغولةً بإعداد أبحاث عن بعض الحالات الموجودة في دار المسنين حين سمعت طرقًا خفيفًا على الباب فقالت دون أن ترفع وجهها:

- تفضل.

- كنت أريد أن أسأل عن الشروط التي تقبلون بها المسنين في الدار.

انتبهت للصوت.. سرى اضطراب في جسدها صاحبه خفقان عنيف بقلبها.. تدفقت الدماء إلى وجهها وهي ترفع رأسها لتجد مصطفى أمامها.. بكل ألقه ورجولته ووسامته الحزينة.. وقبل أن ترد كان مصطفى قد جلس على الكرسي المقابل لها مكملاً حديثه بابتسامةٍ جذابةٍ:

- أتمنى أن أجد مكانًا لديكم فأنا أعيش وحيدًا تمامًا منذ ستة أشهر وخمسة أيام وعشر ساعات وخمس دقائق.

ثم نظر في ساعته وأكمل:

- وخمس ثوانٍ .. ستَّ ثوانٍ .. سبع.. ثمان..

ابتسمت منى برغم اضطرابها مقاطعةً له:

- ولكن هذه ليست مدةً طويلةً لتشعر فيها بالوحدة.

نظر إليها نظرةً آسرةً ملهوفةً:

- تظنين أنَّ شجرة صفصافٍ تستطيع أن تتحمَّل كلَّ هذه المدَّة بدون رعايةٍ أو اهتمامٍ؟

اتسعت ابتسامتها قليلا:

- ولكنَّنا تعودنا أن نستظِّل بفروع الصفصافة المتدلية بحنانٍ.

- لمن تتدلى الصفصافة وقد هجرها الأحبة.

توقفت الكلمات.. ونطقت دموعها:

- أنت لا تعرف ما حدث لي..

قاطعها:

- ما رأيك أن نتزوَّج الآن؟

أكملت بدون أن تنتبه لما قاله:

- هل عرفت ما فعلته وفا...

انتبهت لسؤاله فنظرت إليه مندهشةً فقال برجاءٍ:

- ما رأيك أن نتزوَّج الآن؟.

[١١]

أخيرا غلب النعاس عيون منى.. سِنةٌ لذيذة من النوم أخذتها إلى خدرٍ مريحٍ تسلل إلى جسدها المتمدد على الفراش مستسلمة للفراش الناعم.. على شفتيها شبه ابتسامة.. كان يومًا لن ينسى من عمرها أبدًا.. تحولت فيه هي ومصطفى إلى عصفورين في منتهى النزق والتهور.. يطيران في كل اتجاه.. يملأن الكون بزقزقة

مبهجة.. منذ اللحظة التي انتبهت على طلبه للزواج منها.. شعرت أن الحياة تتوهج بفرحٍ صاخبٍ.. هي حتى لا تعرف كيف وافقت بهذه السرعة مغلقة الطريق أمام كل كلمات العتاب والأخذ والردِّ.. فقد شعرت حين قالها مصطفى كأنه يقول لها أرجوك لم يعد للعمر معنى بدون أن نكون سويًا.

في خلال ساعةٍ واحدةٍ كانا قد تزوجا.. عند المأذون وبعد أن وقعا وثيقة الزواج أخذ يديها بين يديه وقبلهما بحب وحنان ولهفة وشوق.. ثم ألبسها دبلةً ماسيةً في منتهى الجمال والفخامة.. ثم عاد إلى تقبيل يديها مرة أخرى كأنه يريد أن يشعر أن هذا يحدث في الحقيقة لا في الحلم.. أما هي فقد نسيت الزمان والمكان والخجل الأنثوي البديع وأغمضت عينيها مستمتعة بغرورها الأنثوي أمام فارسها العاشق.

أخذها على مطعم صغير في مكان ناءٍ وتناولا طعام الغداء.. ثم أخذا يشربان الشاي باستمتاعٍ رومانسي..

- مصطفى.

ابتسامة مصطفى متسائلة..

- كيف ستخبر البنات؟

بحركة صبيانية هز رأسه:

- لن نخبر أحدًا.

- لن أتزوج في السرِّ.

- ومن قال أننا سنتزوج في السرِّ؟

- لا لا مصطفى أريد أن أفهم.

- سنهرب.

أطلقت ضحكةً كبيرةً لمدة طويلة:

- سنهرب؟

رفع حاجبيه بجاذبية وهزَّ رأسه بالإيجاب.

- وكيف سنهرب يا صفصافة؟.

أسكرته كلمة صفصافة:

- سنهرب بعيدًا.. بعيدًا.

يبدو أن الفكرة راقت لها فقالت:

- موافقة.

صرخ:

- الله.

ابتسمت منتشيةً فقال بجدية مصاحبة لابتسامته:

- لن أدع الأيام تتسرب من بين أيدينا.. لن أسمح لأحد أن يسرق عمرنا معًا.

- يجب أن أعدَّ نفسي.. سأحتاج على الأقل أسبوع.

- ولا يوم واحد.

- مصطفى أرجوك.

- سأتركك الآن على أن أقوم بعمل شيئ ما.. ثم سنلتقي عند الفجر.. سآخذك لنبدأ حياتنا معًا.. أرجوك منى.. لا ترددي لحظة.. لا تضيعي العمر أكثر من ذلك.

- هناك أشياء يجب أن تستعدَّ لها أي امرأة مقبلة على الزواج.

فهم ما ترمي إليه ولكنه قال بإصرار جريء:

- سنهرب غدًا وخذي وقتك في الاستعداد ونحن سويا.. وحين تكونين مستعدة للزفاف أشيري إلي فقط.

ابتسمت في خجلٍ ثم قالت لتغير الموضوع:

- قلت أن عليك أن تفعل شيئًا الآن ماهو؟.

اقترب منها وقال:

- أعددت ورقة تنازلٍ للبنات وعادل عن كل ما أملك منذ فترة وطلبت من المحامي أن يوثق ورقة التنازل وسأمر عليه لآخذها منه.. ما رأيك؟

- مصطفى.. أنا لا أريد سواك.. ولا تهمني أبدًا مسألة المال.

- لي معاش كبير يكفينا والحمد لله.. أردت فقط...

وقبل أن يكمل وضعت أصبعها على فمه قائلة:

- لا أريد أن أعرف شيئًا يكفيني أنك معي.

- كنت أعرف أنك الوحيدة التي تحبيني بهذا التجرد.

- عدني فقط أن تدفئ حياتي بالحب والحنان.

- أعدك حبيبتي.

[١٢]

حمل مصطفى حقيبةً صغيرةً لملم فيها كل ذكرياته.. أعاد قراءة الرسالة التى تركها للبنات.. هز رأسه برضا عن الكلمات القليلة التي كتبها.. كانت كلماته قليلة ومباشرة وواضحة.. ( تزوجت منى.. كنت أتمنى أن تكتمل سعادتي برضاكم.. تركت لكم كل شيئ.. ربما يسعدكم المال.. وأظنه غير قادرٍ على ذلك.. فها أنا أشتري سعادتي بالتخلي عنه.. سنرحل بعيدًا.. أريد أن

أرتاح في أيامي القليلة القادمة المكتوب لي أن أعيشها.. بقلبٍ صادقٍ أتمنى لكم جميعًا السعادة.. إذا افتقدتموني فاجتهدوا في البحث عني.. حين تجدوني سأعود ولن أترككم ).. نظر للبيت نظرةً أخيرةً.. ودَّ لو استطاع أن يحضنه ويقبله.. استدار ناحية الباب.. وانصرف.

الشبورة المائية تملأ صباح الرحيل.. مستوى الرؤية غائم.. أدار محرك السيارة وسار بهدوء يتحسس الطريق إلى المكان المتفق عليه بينه وبين منى.. بدت منى من بعيد كشبح.. ابتسم سعيدًا برغم القلق.. كلما اقترب تتضح صورتها شيئًا فشيئًا حتى وقف قبالتها.. جلست بجواره مبتسمةً سعيدةً مطمئنةً.. قالت:

- الشبورة ستحجب الرؤية.

لمس يدها ثم ضمها وقبلها مبتسمًا:

- عندما تشرق الشمس سينقشع الضباب.

تبادلا ابتسامة مطمئنة ثم انطلقا.

***

# میـریـــــن

**عزيزي الشاعر:**

دعني اللَّيلة أتحدَّثُ إليك.. أكتبُ لك قصَّتي لعلِّي أفرغ بعض آلامي في حروف عمري الحزينة..

حين تلقيتُ رسالتك كانت كمن يمسُّ جرحًا بجرحٍ.. فهل تطيب الجراح إذا تلامست أم تشعلها؟ هل نجد السلوى فى قراءة آلام غيرنا أم تتجدَّدُ جراحنا؟.

**عزيزي الشاعر:**

«**إذا أردت أن تكتب عنى فاعلم انك ستكتب صفحة جديدة من الألم فى تاريخ الحياة الإنسانية**» ستخطُّها بمدادٍ من الدُّموع.. تلك الدموع التى مازالت تنسكب على لحظة فراق مؤلمةٍ لا نستطيع أن ندرك معناها.. ولا لماذا تحدث.. ولكنها حدثت.. تمر على حياتنا ثقيلة مؤلمة مخلفة وراءها أثرًا إنسانيا على مشاعرنا كتلك الآثار التى تبقى دائمًا ظاهرة.. واضحة.. على مر الأيام تحكى قصة حبٍّ لم تعرف الأحزان من يوم أن بدأت.. ولكن إليها انتهت..

الليلة ياسيِّدي أشعرُ أن إحساسٌ ما متصل بين مشاعرنا.. تقاربٌ كبيرٌ برغم أنَّنا لم نتقابل ولا مرة.. وأستطيع أن أجزم أنَّنا لن نتقابل أبدًا.. ولكنها اللحظات الإنسانية.. التى تصل كلَّ ما تقطعه الأيام.. وتبعده المسافات.. وتمزِّقه الآلام.. فيشعرُ الغريبان

بالقرب.. كطيور الرَّحيل على أشكالها دائما.. تقع.

لا أعرفُ أين أنت الآن.. ولا فى أى الأماكن تلقى بك ليالى الوحدة والاغتراب.. ولكن إليك قصتي.. إليك دموعي وأحزاني.. لعلها تكون ملهمة لك.. لتنسج من حروفها قصيدة لكل امرأةٍ عاشقةٍ.. أغراها الحبُّ بالذوبان والتلاشي في ذات الحبيب حتى أفاقت لتجد نفسها مجرَّد حلمٍ جميلٍ إنقضى بسرعة البرق.. كالصُّبح الذي يأتي ليمزِّق حجب الأحلام الجميلة ويلقينا إلى قسوة الواقع.

في أقصى شمال أسبانيا.. في منطقةٍ رائعةِ الجمال..كأنَّها قطعة من الجنة.. جلسنا هناك عند قمَّة ذلك الجبل المطلِّ على البحر.. بحر مديدٍ كأنه بلاشطآن.. والشَّمس قد رحلت لتوها فخلَّفت وراءها سكينة عميقة يكسوها الجلال والجمال.. أمواج البحر هانئة كأنها سبائك ذهبية تروح وتغدو بدعةٍ أنثويةٍ انتهت لتوِّها من وصلة عشق مع نسيم الحب المتدفق من أنفاس العاشقين.. لا أحد هناك سوانا.. أنا وهو.. ذلك الشرقى الوسيم ذى الطلَّةِ الفرعونيةِ.. نجلس متباعدين قليلا.. كانت هذه أوَّل مرَّةٍ يدعوني فيها للخروج منذ تعارفنا.. بقدر ما كنت سعيدة من تلك المفاجأة التى كنت أشتهيها وانتظرها على أحر من الجمر.. كنتُ خائفة..

أتساءلُ: إلى أين سيأخذنى هذا الرجل الذى سحرني وأذاب كل جبال الوحدة التى تحيط بحياتي.. فتحوَّلت إلى بحيراتٍ وشلاَّلاتٍ وأنهارَ وجداولَ عذبةٍ أنبتت فى حديقة فؤادى مساحاتٍ مذهلةٍ من الألوان المضيئة بالإنسانيةِ الجميلةِ.. والأمل فى حياةٍ مختلفةٍ.. إلى أين سيأخذنى سليلُ الخيمة.. والسَّيفِ.. والبادية.. وأنا لم أقبل الخروج مع رجلٍ قبله.. ولا تصوَّرت مع كل الحرية المنطلقة التى نعيشها سوى أننى امرأة استثنائية.. تأبى أن تمارس الحبَّ إلا بتلك الإنسانية الشفيفة التى تميزها عن سائر المخلوقات.. كان قلبي يزداد اضطرابًا كلَّما تسلَّل اللَّيل واقتربت الظلمة.

أمَّا هو.. فكان صامتًا شاردًا يتطلَّع للبحر والسماء والنجوم.. يتنهَّد متذكرًا.. يحكي لي عن أيامه الأولى التى وطئت فيها أقدامه أسبانيا أوالأندلس كما كان يحبُّ أن يسمِّيها.. سنوات عديدة تعب من عدِّها.. منذ أن جاء من بلاده بحثًا عن الرِّزق أولا والحرية ثانيًا.. حصل على الحرية من أوَّل لحظة وطأت قدماه أرض الأندلس وذاب من الضنى حتى حصل على الرزق.. لم يكن أقسى عليه فى تلك الرحلة الطويلة سوى هذه المساحات الكبيرة من الحرية التى لم يتعود عليها.. جرعة متدفقة ومتواصلة جعلته يخافُ على نفسه أكثر من الانجراف فى تيارها.. قاوم إغراءاتٍ نسائيةٍ

كثيرةٍ تصهر الفولاذ حتى وصل بإنسانيته إلى شواطئي.. ليجد فيّ ما كان يتمنّاه ولا يتصوَّر أنَّه موجود.. إمرأة غربية إختارت بإرادتها الحرّة أن تمارس الحرية بمسئولية تتناسب مع قيم الإنسانية العفيفة.. إمرأة اختارت الإسلام دينًا قبل أن تعرفه.. قرأت وبحثت وقارنت لسنواتٍ طويلةٍ حتَّى اقتنعت بأنَّ الإسلام يحملُ أرقى نظام انسانيٍّ وأخلاقيٍّ عرفته البشرية.. اكتشفنا معًا تلك الطهارة الجميلة فينا.. فكان مثلي.. لا يتصوَّر أبدًا أن يمارس الحياة سوى بإنسانيته التى يتفرَّد بها عن الحيوانات.

لم يقطع هذا الشرود.. وهذه الرَّهبة إلا نور القمر حين سطع بقوةٍ فأنار اللَّيل وأزاح الرَّهبة وأشاع جوًّا من الأنس والألفة.. فاقتربت إلى جواره ألتمس الأمان.. والتفت إلي فى نفس لحظةِ الاقتراب فالتقت العيون فى ابتسام جميلٍ.. ثم مال إلي هامسا بصوته الدافئ:

- لم أخطط ولامرة فى حياتى كيف سأقول لامرأة أحبُّك.. ولا أعرف كيف تقال تلك الكلمة لامرأة أحبُّها.. أحبُّكِ.. ولم أجرؤ أن أقول لامرأةٍ قبلك.. أحبُّكِ.. ولكنى بكل القوة والعاطفة التى تجتاحني.. أحبُّكِ.

رفرف القلب بقوةٍ من هول المفاجأة كما طائر ذُعِرَ فجأة فأخذ

يضرب بجناحيه طائرًا فى الفضاء الواسع الرحيب على غير هدى.. أعادها بصوت أعلى وأقوى تردَّد صداه عند القمر.. أحبُّكِ.. فتتضاعفت مساحات الفضاء ليتوه طائر القلب أكثر.. ليسقط التحرُّر.. ما أجمل الخيمة والصحراء الرحيبة.. ما أجمل الغموض.. ولياليِ الانتظار الفاتنة.. ما أروع النقاب والخباء.. والخوف والحياء والأمل.. وصهيل الأحصنة المنتظرة وصليل السيوف.. الفارس شق جبال الصمت فهوى عليها بسيفه ليختطفنى إلى أبعد نجمةٍ فى الكون.. ليجعلني الملكة المتوَّجة على عرش الحب.. هذا الشرقي هو أوَّل رجل سيلمسني.. هذا قراري.. لن أمنح بكارة عمرى وجسدي سوى لهذا الرجل.

عزيزي الشاعر:

لم يدر بخلدي لحظة واحدة أن تدور الأيام بهذه السرعة.. وأعود لنفس المكان.. لأجلس هناك.. وحدي.. بشعور مضطربٍ مختلفٍ.. ألتمسُ الأمان.. فلا أجده.. يفرش القمر نورًا شاحبًا يزيدُ رهبتي.. كلُّ شيئ حولي يلقيني لسفن الحيرة لأبحر بلا أشرعةٍ.. وسط أمواج سوداءٌ غامضة لاقرار لها ولامخرج.. كان اليوم مختلفًا عن كلِّ الأيام التي عشتها معه.. يومًا يستحقُّ أن يؤرَّخ له وأن أتذكَّره ولا أنساه.. أولُّ مرَّةٍ أتمرَّدُ فيها على ذراعيه

بعد سنواتٍ عشتُ فى أسرهما.. حينما تقابلنا هذا الصَّباح فى الطريق بعد عدَّة أيام افترقنا فيها.. ابتسم ابتسامته الجميلة وفتح ذراعيه ليضُمَنى.. بلا ترددٍ وبقوةٍ لم أتخيَّل أن أتحلي بها أمام جاذبية رجولته التي لا تقاوم.. تراجعتُ خطوة للوراء وشبكت أصابع يديَّ خلف ظهري بقوةٍ.. متماسكة أن تضعف له كما يحدث فى كلِّ مرَّةٍ.. اقترب خطوة منِّي.. تراجعت بنفس مساحة اقترابه.. حاول الاقتراب مرة أخرى فتراجعت بإصرار.. تنساب دموعي وأنا أهزُّ رأسي.. وأقول له بصوتٍ متشنج بالبكاء: لا.. لا.. لم يستطع أن يدرك أبدًا كيف قاومت هذا الطوفان الجميل الذى كنت أذوب فيه.. كيف قرَّرتُ كسر الحصار الذى طوَّقني به.. كيف قرَّرت أن أهجر تلك الجزيرة المجهولة التى اكتشفت انه أخذني إليها بعد سنوات من الحب.. تراجعت خطواتٍ وخطواتٍ حتَّى جريت من أمامه.. أما هو فقد ظلَّ فى مكانه فاردًا ذراعيه كالتِّمثال وقد حلَّ الذهول على وجهه مكان الابتسام.

تتدحرج الدُّموع على وجنتيِّ وتتدفَّق.. وأهزُّ رأسي فى أسىً.. لم أتمنَّى أبدًا أن يصل الحبُّ بيننا إلى حافة الانهيار.. بعد أن كان قويًّا صلبًا يمكنه أن يواجه الدُّنيا بأسرها.

أتذكَّر الآن حين تقابلنا للمرة الأولى في إحدى الندوات..

وقد أسرف المحاضر في الحديث عن ظلم الإسلام للمرأة حين لفت انتباهي وهو يطلب الإذن بالرَّد بجسارةٍ وإصرار.. وقف وسط القاعة وبدل من أن يدافع عن الإسلام.. فنَّد بالحجج والبراهين القوية كيف ظلمت الحضارة الغربية المرأة وحولتها إلى مجرَّد سلعةٍ رخيصةٍ تباع في سوق نخاسة لايختلف عن أسواق النخاسة في عصور أوروبا المظلمة ولكن بتغيير الأسماء.. ثم عقد مقارنة مذهلة بين قيمة المرأة في الرؤية الإسلامية وقيمتها في الرؤى الغربية بمنطق مبهر.. كان يردُّ بجسارة وثقةٍ وحجةٍ قوية سهلة ومفهومة على المحاضر الذي أفحمه الجواب الذي لم يكن يتوقعه فأنهى المحاضرة متحجِّجًا بانتهاء الوقت.

التفَّ الجميعُ حوله بعد الندوة يسألونه وهو يجيب بأسلوبٍ سهلٍ جذاب.. وقفتُ وسط الجميع أستمع له.. لا.. في الحقيقة كنت أتأمَّل عينيه.. وأنفه وشفتيه.. وكل تفاصيل وجهه البيضاوي المبتسم ابتسامة شروق شمس العيد.. تجتاحني رغبة أنثوية صارخة من عمق الحرمان بأن أهوي على شفتيه فأعتصر رحيقهما.. لأقتات على شهدهما في ليالي الوحدة.. كلما التقت عينانا أثناء حديثه يجتاحني زلزال صغير يدغدغ حواسي بالفرح والاضطراب.. للرجولة إحساس مختلف عند هذا الرجل متجسدة أمامي.

حسنا.. ها أنا أتعرَّف للمرَّة الأولى على أبجديات الحبِّ.. فتصرخ روحي السكرى.. ليحل اللَّيل.. ليذهب النوم.. ليرافقنى السهر.. لأتساءل طوال اللَّيل من هذا الرجل الذى تتصدَّر ابتسامته الصافية كشلالٍ من الياسمين كل نشرات المساء فى صدرى؟ كيف تركته يذهب؟ كم أنا غبية.

لم يتركني القدر الحنون أنتظر سوى تلك اللَّيلة المؤرقة فترفق وفاجأني به في الصباح وأنا في الطريق.. ابتسم حين رآني ابتسامة بعثرت مشاعري.. ألقى علي تحية صباحية شرقية دافئة.. فتداخلت الحروف فى بعضها وأنا أرد عليه مما جعلنا نضحك بعذوبة مشرقة.. قال كأنه يردُّ على سؤالٍ دار بخلدي:

- رأيتك أمس أثناء المحاضرة.

ثم أردف مازحًا:

- تظنِّين المرأة بكل جبروتها وقوتها في حاجة لمن يدافع عنها؟.

اتسعت ابتسامتي لهذه التلقائية الحميمة.. وقلت متجاوبة مع مزحته بابتسامة شجية:

- بكل جبروتها وقوتها تظلُّ في احتياج لفارس يشعرها بأنوثتها.

كانت تلك البداية.. وما أروعها من بدايةٍ.. سرنا متجاورين نتبادل الحديث كأن بيننا اتصالٌ قديمٌ لم ينقطع.. اكتشفنا أننا ذاهبان إلى نفس المكان لنتسلم محلين من تلك المحلات التي تؤجر أثناء الأعياد لفترةٍ محدودةٍ لنتاجر في منتجات يشتريها المحتفلون.. ثم اكتشفنا أننا نتسلم محلين متجاورين.. ماذا يفعل القدر بنا؟ ساعدني بتلقائيةٍ وشهامةٍ في ترتيب محلِّي.. وسعد هو كثيرًا بذوقي المبهر قي ترتيب أشياءه.. لم نتواعد على اللِّقاء.. فقد رتَّب لنا القدر طاقة يومية من السَّعادة نتبادلها يوميا لمدة أسبوعين حتى نهاية أعياد الميلاد.

كان لقاؤنا هذا الصباح هو أروع ماحدث لي في حياتي على الإطلاق.. فقد التقينا والتقي في ذات الوقت قلبانا وروحانا وامتزجا وتآلفا بسرعةٍ مذهلةٍ ومارسا أرقى أنواع الحبِّ قبل أن يلمسني لمسة واحدة.

أسبوعان كاملان لم نفترق فيهما لحظة واحدة إلا في سويعات النِّوم.. كانت دموعي تنسال حزينة على وسادتي على هذا الفراق القصير.. الذي يعقبه شروق عينيه بابتسامته الآسرة.. نلتقي في الصباح الباكر جدا في نفس المكان الذي التقينا فيه في أحلى صباحاتي.. فتحتار الكلمات والنظرات على بحار الشوق التي

غرقنا فيها.. فنداري أشواق الروح بابتسامةٍ دافئةٍ ثم نسير متجاورين حتى مكان العمل فنتناول فطورنا سويًا.. ونتشارك في إعداد البضاعة وإعادة ترتيبها.. ثم نجلس نتجاذب أطراف الحديث في كل شيء وعن أي شيء حتى يستيقظ الكون استيقاظه المعتاد ونبدأ العمل.. لم نفوت فرصة للراحة إلا وتحادثنا.. واكتشف كل منا الآخر واقتربنا أكثر وأكثر وأصبحت حواراتنا ثرية ذات عمقٍ ثقافيٍّ واسع.. كان هو يتعجَّب أن امراة لديها هذا النهم الثقافي في مجالات كثيرة كالفن والأدب والسياسة والبيولوجيا والكيمياء.. وعلم الاجتماع وغيرها.. وكنت أعجب من ثقافة الشرقي الواسعة وقدرته على الإنصات والفهم وحُسن المحاورة.. والأبهى من ذلك كله تعامله الطاهر معي على الرغم من شغف الحب بيننا.

مرَّ الأسبوعان كومضة برق قويَّةٍ أضاءت ظلام الشتاء.. التقينا صباح آخر يوم لنا.. إغتسل الطريق بماء المطر المنهمرِ طول اللَّيل.. واغتسل وجهي بدموع الخوف من نهايةِ اليوم الأخير.. أمَّا هو.. آه من هذا الشرقي الحبيب.. قابلني بنفس الابتسامة الصَّباحيةِ.. متجاهلا أثر الدموع على وجهي وسار إلى جانبي يحادثني متضاحكا.. وانشغلنا بطقوسنا اليومية.. وكلَّما مرَّت

ساعة أزداد انقباضًا واضطرابًا.. حتى حلَّ المساء وحان موعد الانصرافِ الأخير من حلبة السوق المقام لأعياد الميلاد.. وقد جفَّت مشاعري فلم أعد أستطيع أن أحدِّد بالضبط شعوري ساعتها.. أما هو فقد جاء كحبة مطر مكتنزة بالعطاء بكل قوتها وعنفوانها من السماء لتسقط على صحراء أيامي لتوقظ الرَّبيع قبل أوانه.. أما هو فقد مال على أذني كأنه يخاف أن يسمعه أحد قائلا:

- لم أخطط ولا مرة في حياتي كلها لأن أدعو امرأة للخروج معي.. ولكن بداخلي قوة مذهلة تدفعني لأن أدعوك للخروج وأخاف ألا تقبلي.

كالفراشة طرت في الفضاء.. بجناحين رقيقين جميلين.. وددت في هذه اللحظة لو عانقته وعانقني.. وددتُ في تلك اللَّحظة أن تشتعل نيرانه.. فألقي بذاتي فيهما لأحترق.

كان ذلك هو المساء الذي خرجت معه سرنا مسافة طويلة حتى حط بنا الرحال هناك على قمة الجبل المطلِّ على البحر.. يومها أباح لي بحبه.. ورفرف القلب وطار.. ولكنه أبى أن يترك قلبي يطير بجناحي الفرحة على غير هدى فعرض على الزواج.. فلم أتمالك نفسي فارتميت على صدره أضمُّه بكل قوتي.. أمَّا هو.. فقد ظل ذراعاه مندهشان للحظة ثم غلبه الحبُّ والشوق فحضنني..

وضمني.. ووجيب قلبينا يرتفع حتى كاد أن يتوقف.

**عزيزي الشاعر:**

كيف أصفُ لك فيض المشاعر؟ أم كيف أصفُ لك طوفان الفرح المغسول بدموع الأشواق الذي اجتاح الحضن الدافئ على قمة الجبل.. لايمكن أن أصفه ولكن أستطيع أن أقرِّبه إليك فأنت شاعرٌ وتستطيع أن تلتقط مشاعر الآخرين وتنسجها بالكلمات.. تصوَّر أننا لم نستطع أن نبيت ليلتنا متباعدين فقد قطعنا مسافة طويلة في وقت قياسي فاشترى لي فستانًا ورديًا بلون البهجة.. واشترى حلّة جميلة بدا فيها أروع الرجال.. ثم طرنا إلى المركز الإسلامي فأدركناه قبيل إغلاق أبوابه بدقائق.. وعقد قراننا شيخ المركز.. ولا أنسى أبدًا حين دخلنا إلى باحة المركز وقد استعدَّ الشيخ ومجموعة من الرجال للانصراف وقد راعهم طريقة دخولنا المفاجئ.. وقفنا امام الشيخ صامتين برهة في محاولة لالتقاط أنفاسنا ثم تكلمنا فجأة معا ونحن نلهث فاختلطت الحروف وتاهت الكلمات ولم يفهم أحد من الواقفين شيئًا.. إلا الشيخ فقد ابتسم وهزَّ رأسه ثمّ التفت إلى الحضور وقال كلماتٍ بالعربيةِ لم أفهمها فانفجر الجميع بالضحك والتفوا حولنا مهنئين ثم دخلنا إلى داخل المركز الإسلامي.. وفي لمح البصر وجدت القاعة امتلأت

بالورود.. وأنواع كثيرة من الحلوى.. وعصائر.. شعرت أن المكان امتلأ بالناس وجاءت فتيات صغيرات كالفراشات يتقافزن حولي.. ونساء وجوههن طيبة ندية يقدمن لي التهنئة.. نظرت لحبيبي فوجدته كالقمر وسط رجال كثر لا أدري من أين جاءوا.. هل أنا في حلم جميل سأستيقظ منه.. أم أنا أعيش أروع لحظات العمر؟.

والتقينا.. وسقى الندي زهور العمر.. وأطلت الشمس بالدفء.. وأضاء القمر ليالي الحب.. وانتشت ريحانة القلب.. وارتعش الجسد.. وحلقت الروح.. وانهارت سنين الصبر.. وتدفق النهر في أودية حياتي.. ونمت مطمئنة البال راضية بقسمتي الجميلة في الحياة.. وسجدت لله شاكرة فقد بلغني فوق ماكنت أتمناه.

**عزيزي الشاعر:**

عندما نرى حريقا هائلا نندهش من تطاير النار وهولها واتساعها.. والتهامها السريع للأخضر واليابس.. وننسى أن بداية هذه النار شرارة متناهية الصغر يمكن أن يطفئها طفل صغير.. نغفل عنها.. أو نستخف بها ولا نلقي لها بالا.. فتكون فيها نهايتنا.. كانت تلك ببساطة شديدة تصوير بليغ لحكايتنا.. شرارة صغيرة اشتعلت في أحدى حواراتنا.. ولم نلتفت إليها.. صارت جحيما لم

أستطع إطفاءه.. وبسببها أعيش الآن أيامًا كئيبة قاتلة.

أتقلب في فراشي.. قلقة.. حائرة.. ألتفت إلى نافذتي كل صباح متساءلة لماذا نور الصباح أصبح حزينا هكذا؟ هل لأنه اكتشف أن النهار المكتنز بالضياء يحمل فى رحمه ظلمة الليل.. وكل سعادة حقيقية فى الحياة هي مجرد ضحكة صافية نرتشف رحيقها لنعرف كم هو الحزن موجعٌ ومؤلمٌ وحارقٌ.. وكل اقترابٍ حميم بين حبيبين هو فى حقيقته لحظة استعدادٍ للرَّحيل.. تلك اللحظات التى نصل فيها إلى ذروة الأشياء لا ننتبه إلى بداية جديدة فى حياتنا.. ذلك هو اكتشافي المثير.. اكتشاف الديكتاتور الشرقي الذي ملأ حياتي بالحب والاحتواء..هو هو نفس الشخص الذي يقبل أن يناقش ويحاور في سعة صدر.. ويشرع في تجميل وجهه بفتح مساحات شاسعة للحرِّية في الحوار ولكن الكلمة الأخيرة يجب ان تكون دائما له.. اشتعلت تلك الشرارة الصغيرة بصدري.. تجاوزتها بسرعة ولم ألتفت إليها.. وبمجرد تجاوزي نشأت مشكلة أخرى ورئيسية ساعدت في امتداد النيران.. طلب مني وبكلمات آمرة أن أؤمن بكلمته الأخيرة باعتبار أنها الحقُّ الواضح الذي لامراء فيه.. تعجبت جدا أن ينتهي الحوار هذه النهاية.. وتضايقت ورفضت وتغاضبت.

تعرف ماذا فعل بي؟ حرمني وبمنتهى البرود والقسوة أن أنام بين ذراعيه.. وأن أغرق في دفء أحضانه.. وهو يعلم تماما أنني لايرقأ لي جفن إلا في حضنه.. ولايمكن أن يأتيني النوم إلا وهو بجانبي.. مثل لي هذا الأمر صدمة هائلة وتسبب في شرخ لم أستطع أبدا أن ألملمه حتى كتابة هذه الكلمات.. لم أستطع النوم من القهر وظللت أبكي بدموع ثخينة حتى رق لي وقام وصالحني وأخذني في حضنه.. وظللت بعدها أكثر من ساعة يغلبني شهيق البكاء فأبكي.

صعبت على نفسي كثيرا فقررت ألا نفتح حوارا بيننا.. ونتجاوز الثراء الثقافي الذي كنا نتبادله في سهراتنا.. حتى يشتاق بعد عدة أيام للحوار فيفتح موضوعا للحوار يكون قد قرأه في مجلة.. فاشترط عليه انه طالما قبلنا الحوار والمناقشة فعليه أن يقبل الاختلاف.. فوافق ببساطة.

كان الحوار حول إلغاء عقوبة الإعدام.. فسألني عن رأيي فقلت له أنني موافقة على إلغاء عقوبة الإعدام.. فأخذ يكلمني عن وجود هذه العقوبة ضمن الحدود الإسلامية.. والتي يجب أن نؤمن بها طالما نحن مسلمين.. وأخذنا الحوار وأنا أسير على حذر.. أسوق له أدلتي الإنسانية.. وهو يدور حول وجوب الإيمان

باعتبارها حكم شرعي.. واحتدم النقاش مرة أخرى من جانبه.. حتى قلت له أنني أؤمن بوجود الله رغم أني لم أره ويمكنني أن أسوق ألف دليل يقبله العقل على وجود الله.. وأنني مستعدة لأن أؤمن بما يقوله فقط أعط لعقلي دليل يرضيه.. وما إن تفوهت بهذه الكلمات حتى تحوَّل الحوار فجأة إلى خطوطٍ فاصلة.. إلى حق وباطلٍ.. إلى كفر وإيمان.. هذا الذى لم أستوعبه أبدًا.. ولم يخطر لي على بال أن أجد نفسي فجأة في خيارات غريبة مع إنسان أعشقه بكل ذرة في كياني.. ونعيش معا تحت سقفٍ واحدٍ.. حبيبان وعاشقان.. إما أن أكون معه في معسكر الحق الذي يراه.. أو في الجهةِ المقابلةِ.. إما أن أحتفظ بزوجي وحبِّي وحياتي حتى لو كان ذلك ضدَّ قناعاتي.. أو أكون هناك.. في المنفى.. هذا كله لمجرد أن طلبت أن يسوق دليل يقبله عقلي.. وكنت متأكدة أن عنده أدلة مقنعة.. ولكني شعرت أنه يريد أن أغلق عقلي وأقبل مايقوله هكذا.. ارتعش جسدي عندما وصل النقاش إلى هذا الحد وشعرت أنه سيكرر علي فعلته ويوليني ظهره فسارعت لتطيب خاطره وأنا أتصنع ابتسامة.. يومها شعرت وأنا بين ذراعيه بأن حضنه تسلل إليه موجة باردة لم تستطع أن تدفئني.

في محاولة لتجاوز الأزمة.. والحفاظ على العلاقة القوية بيننا..

تغاضيت في مراتٍ عديدةٍ هذه النهاية الغريبة للحوار.. وبدأت في تجنب فكرة الحوار واستبدالها بالانشغال في أي شيئ.. ولكن تجاوزي أغراه في التمادي فكان يجرجرني رغم أنفي للحوار.. بفتح مواضيع مثيرةٍ وجدليةٍ كلها تنتهي إلى تلك الخطوط الفاصلة بين مايراه هو حقا أو باطلا.. حتى وصل بنا الحال لذروته وتعدَّى الأمر من مجرد حوار على وجهاتِ نظر مختلفةٍ فقفز إلى حياتنا الخاصَّة بشكل مباشر.. حيث أهملني بشكل واضح وأبدى زهده في العلاقة بيننا وعدم الاكتراث بارتباطي به.. فتأثرت علاقتنا الحميمية وبدأ صمتٌ كئيبٌ يخيم على المساء لايقطعه سواي حين أشتاق للمسته.. وحضنه.. حين أفتقد زوجي وهو بجواري.. فأزحف نحوه متجاوزة مرارة خيمت على حياتي.. وأحالتني لمتسولة للحب والحنان.

يندفع الماء على جسدي.. وتندفع دموعي معه.. لماذا أبكي الآن؟ تبدلت الحياة فجأة.. كنت أشعر دائما وأنا أغتسل برضا هائل.. وسعادة تغمرني مع الماء المتدفق بعد كل اللحظات المتوهجة.. التي مارسنا فيها الحب.. الآن أبكي من استجدائي لهذه اللحظات.. لم تعد موجودة.. انطفأت.. أصبحت مجرد احتياج بيولوجي كالذي تحتاجه إناث الحيوانات كل فترة.. فتسير في

الطرقات تبحث عن رائحة ذكر خلفها ورائه لتبحث عنه الإناث.

كان يعتمد كثيرا على حجم تأثيره العاطفي البالغ وارتباطي به.. وقدرته الفريدة على إروائي.. ولكنه لم ينتبه وهو يستخدم هذه الطريقة للتأثير علي أنه يحطم بغباء العلاقة الرائعة بيننا وأنه غرس بعناده شرارة صغيرة في كياني.. ظلّتَ تكبر وتتغذى على مشاعري بدأبٍ ونهمٍ متواصلٍ.. حتَّى أوصلني لنقطةٍ نهائيةٍ لاعودة منها.

تلفت حولي بلهفة وخوف على حياتنا أبحث عن حل.. فذهبت لصديقات شرقيات متزوجات يسكن في نفس المدينة.. لجأت إليهن.. أصغين باهتمام حتى انتهيت من سرد مشكلتي.. تبادلن نظرات غير مفهومة ثم انفجرن ضاحكات في لحظة واحدة.. كنت أشعر وأنا أنظر إليهن وإلى ضحكاتهن المستهزئة أنني أشاهد ممثلات على خشبة مسرح في كوميديا سوداء.. كان ضحكهن العالي يخفي مرارة عامة بادية على وجوههن.. ثم هدأ الضحك وأخذت كل واحدة منهن تلقي علي موعظتها.. كانت كل المواعظ تتجه في إتجاه واحد وهو أن وجود رجل في حياتها هو أهم شيئ في الحياة.. بكل الشرور المحتملة يظل وجوده أفضل من غيابه.. حتى قالت لي إحداهن مثل شرقي صادم ومذهل:

- ظل رجل ولا ظل حائط.. لم أفهمه في البداية ثم فسرته لي

إحداهن فانفجرت أنا ضاحكة.. حتى غلبتني دموعي.

بعد فترة صمت.. سألتني الصديقات أسئلة محددة وواضحة:

- هل هو بخيل؟.

- لا.

- هل يشتمك كثيرا.

- لا قليلا ولا كثيرا.

تعجبت من كلمة كثيرا ولكنني تجاوزتها ولكنهن عدن لذكرها مرة أخرى كأنها من مسلمات الحياة.

- هل يتطاول عليك بيده كثيرا؟.

- لا قليلا ولا كثيرا كذلك.

- هل يخونك؟.

- لا.

- هل لديك مشكلة في العلاقة الخاصة؟.

- مطلقا.. نحن متفاهمان على أروع مايكون.

خيم الصمت على حديثنا تبادلن خلالها نظرات متعجبة.. ثم ابتسمن وعلى وجههن علامات عدم الفهم.. ثم قامت صاحبة

المنزل ووقفت وسط الحجرة قائلة لصديقاتها بسخرية بادية:

- هل تريد إحداكن الانتحار معي؟

وانفجرت الضحكات مرة أخرى.. ولم أتمالك نفسي فضحكت معهن بنفس الهيستريا.

طالت الجلسة.. حكين لي عن قصص غريبة عما يحدث خلف الأبواب المغلقة لتثبت كل قصة من القصص أنني في نعمة كبرى لايجب أن أفرط فيها.. وأن مشكلتي ساذجة جدا تحتاج مني فقط أن أتفهم طالما أنني متزوجة وأن زوجي يمنحني أشياء نساء كثيرات محرومة منها.. توالت الاكتشافات وأنا أستمع لحكاياتهن عن القدرات الخارقة للمرأة الشرقية.. وقدرتها العجيبة على العيش مع رجلٍ متسلطٍ حتى الموت.. المهم ألا تمضي وحيدة في الحياة.. فالمرأة التي ليس لها زوج لأي سبب من الأسباب هي امرأة تعيش حالة احتياج.. وشعور الرجال بأنها محتاجة للرجل يجعلها في دائرة الطمع الذكوري.. وهذا يجعلها منبوذة بصور شتي داخل مجتمع الزوجات.. يعني ببساطة تعيش تحت ضغط نفسي وعصبي أكبر بكثير من أن تعيش في ظل حائط.. أقصد ظل رجل.. لتكون في مأمن ولا يراها أحد سوى في الهيكل الاجتماعي الآمن.. بدا لي أن المرأة الشرقية تولد متدربة بالفطرة للتعامل مع الزوج وتنمو لها

قدرات مذهلة على ابتلاع ديكتاتوريته ومنحه حصة كاملة من الصمت والإقرار والإيمان الجازم والمذعن لكل ما يقوله برغم يقينها الجازم بخطأ الكثير مما يدَّعيه.. بل وتجاوز مرارتها بالتأكيد على قوته ورجولته وقدرته الفائقة على الفهم.. كل ذلك من أجل هدفٍ واحدٍ ألا تمضى حياتها بلا رجلٍ.

**عزيزي الشاعر:**

دخلت في صراع نفسيٍّ حارق بين أن أفقد الرَّجل الذي عشت سنوات عمري أنتظره وبين أن أفقد نفسي.. ومع هذه الحيرة التي كادت أن تفتك بي لجأت إلى طبيبة نفسية.. واستمعت طبيبتي باهتمام لحكايتي.. وسألتني عن تفاصيل رأتها مهمة.. وبعد عدة جلسات قالت لي:

عليك أن تبتعدي عنه.. تدرَّبي نفسك بالتدريج لهذا الأمر.. حتى تخرجي من دائرة تأثيره عليك.. مشكلتك أنَّك مريضة به.. إذا استطعت فعل ذلك يمكنني أن أساعدك في اتخاذ القرار.

الجلسة النفسية الأخيرة أمدتني بقوةٍ كبيرةٍ.. وعناد نفسي على أن أجرِّب الابتعاد عنه.. تركت له رسالة وسافرت إلى عائلتي في أقصى الشَّمال.. ومكثت أسبوعًا كاملا بعيدة عنه لأول مرَّة منذ

زواجنا.. كان يتَّصل بي يوميًا.. ولكن اتصالاته وصوته الدافئ لم يزحزحني عن موقفي أبدًا.. كم كنت سعيدة بقدرتي وقوتي.. وفي نهاية الأسبوع وجدته أمامي يفتح لي ذراعيه باتساع الكون كطائر خرافي.. ذابت كل قوتي وانهارت مقاومتي في ثانية واحدة.

عاد كل شيئ كما كان.. عدت لنقطة البداية.. وضحكت الطبيبة.. وتندَّرت على الشرقيات.. أمَّا هو فقد توقَّف عن النِّقاشات المؤلمة.. فقد كان مشغولا جدًّا في أعماله.. و لا يعود إلا في المساء.. ليجدني خلف الباب بكوبٍ من العصير الطازج.. فيقبّلني ويشربه.. ثم يجلس على مقعد أعدّه له خصيصًا بالوسائد والعطر.. وأخلع له حذاءه.. فيحدثني قليلا.. ثم يذهب للاغتسال من عناء اليوم في حمَّام هانئ دافئ بمشاعر زوجة لا تبغي من الحياة سوى رضا زوج يحبُّها ويقدِّرها ويحترمها.. وأثناء اغتساله أكون قد أعددت عشاءً رومانسيًا وشموع حمراء في أرجاء المكان.. يخرج من الحمّام ليجد مائدة الطعام معدّة بألوان شهيةٍ لا تقاوم من الأطعمة التي يحبُّها.. وبجوارها أنثاه في ثياب الفتنة وقد عكست أضواء الشموع نظرة عينيها التي تحمل نداءً ولهفة ونزق جنوني عارم فيذهل عن الطعام.. فيحمل أنثاه بيديه القويتين ويغرقا في بحور من اللَّذة حتى الثمالة.. ثم نكمل سهرتنا في الطعام والحديث

والضحكات.. تتخللها موجات متدفقة من القبلات الغرامية التي تعطي للحياة ألوانا لا يطلع عليها سوى العاشقين.

وهدأت الحياة بيننا وتراخت النقاشات والاختلافات.. وسكنت روحي واطمأنَّت واستعدَّت لحياةٍ سعيدةٍ.. ولم أكد أغفو في سنةٍ من السعادة حتى وجَّهت لي الحياة لطمة أقوى ممَّا كنت أتصوَّر.

بعد عدة شهور إكتشفت أنني حامل.. وبكل السعادة التي ملأت أرجاء الدنيا كان نبأ حملي أقوى صاعقة نزلت على الكون منذ اليوم الأول للخليقة.. ذهول سيطر عليه غلَّفه بصمتٍ غائم.. ونظرةٍ غريبةٍ أطلَّت من عينيه لم أرها من قبل.. وبعد فترة من الحقبة الجليدية التي حطَّت على البيت وقف قليلا.. ثم تحرَّك ناحية الحمَّام.. وفي منتصف الطريق التفت إليَّ وبكلماتٍ قليلةٍ أذاب الحقبة الجليدية ببركان حارق وبصوتٍ كالمنشار:

تخلَّصي من هذا الجنين

ثم تحرَّك ببرودٍ قاتلٍ إلى الحمام فاغتسل ثم خرج.. لم يتناول طعام العشاء.. ولم يأخذ ولا رشفة صغيرة من نبعي.. وهبَّت رياحٌ عاتية أعقبتها أمطارٌ غزيرة نزفتها دموعي طول اللَّيل وانطفأت كل الشُّموع التي أعددتها لليلةٍ سعيدةٍ من اللَّيالي اليتيمة التي تجود بها الحياة.

في الصَّباح بدا متغيِّرًا قليلا.. فقد عانقني وقبَّلني.. وفهمت أنَّه سيفتح باب النِّقاش وماهذه القبلات والأحضان إلا رشاوى عاطفيةٍ يقدِّمها لأقبل برأيه.. ويبدو أنَّه استعدَّ منذ اللَّيل بكل أسلحته في النِّقاش.. أمّا أنا فلم أكن مستعدَّة أبدًا ولم أتصوَّر أنَّه سيناقشني أصلا فقد قضيت اللَّيل في البكاء ومحاولة فهم ما لا يُفهم.. وبدا النِّقاش بين اثنين غير متكافئين.. أحدهما في منتهى الاستعداد بالحجج والآخر في منتهى الانهيار.. وناقشني.. وحاصرني.. وبدا بعد فترةٍ وجيزةٍ من النقاش الذي كان كله تقريبا من جانبٍ واحدٍ أن كل مايتفوه به عبارة عن كلمات سماوية لا تقبل النقاش:

- هذا المجتمع المتحرِّر الذي نعيش فيه لايمكن أن ينشأ فيه أولادي أبدًا.

قلت برجاءٍ أخير كحلٍّ للمشكلة:

- نعود إلى بلدك ونعيش في مجتمعك.

وبرد فعلٍ قويٍّ حاسم وكأنَّه رمى بحجر ثقيلٍ في وجهي فهشَّمه:

- ثم لايعجبك مجتمعي فتهربين بأولادي.

تحجَّرت عيناي من هول كلماته.. وصمت ثقيل ألجم لساني.. وانحدرت الدموع بغزارة على وجهي من قسوة كلماته.. فأطرق إلى الأرض.. واعتذر بكلماتٍ لم أسمعها.. مدَّ يده وجذبني برفق وأجلسني وبكلماتٍ هادئةٍ وقبلاتٍ متناثرةٍ بدأ يقنعني أن نؤجل الحمل قليلا فهو يشعر أنه مضطربٌ نفسيًا.

**عزيزي الشاعر:**

خرج الجنين من جسدي.. وخرجت معه كل بارقة أملٍ في أن أعود إليه.. وتملَّكتني قوّة غريبة وسيطرت على مشاعري.. فخرجت من المستشفى ولم أعد إلى البيت.. ولا إلى إلى بيت العائلة.. ولكنني سكنت في نفس البلدة.. وتحاشيت أن أراه.. أما هو.. فبحث عني كثيرًا حتى عثر على عنواني.. وكأنَّه خشي أن يأتيني فانتظرني في الطريق.

أكذب عليك يا صديقي لو قلت لك أن الكون لم يشرق بداخلي حين رأيته من أوَّل الطريق.. وأن الحنين سري في كياني فتفتحت مسامي بزهور الياسمين.. وأنني كدت أطير إليه حين فتح ذراعية بوسامته الخلابة.. ولكنني حين اقتربت منه اضطربت فجأة وسرت ارتعاشة في جسدي ووجدتني أشبك أصابعي خلف ظهري وكأنني أحبس ذراعي من أن تسوقني إلى حضنه..

وتسمرت أمامه ففتح ذراعيه بثقة واتسعت ابتسامته أكثر وأكثر.. فرجعت إلى الخلف خطوة وأنا أهزُّ رأسي بقوةٍ وأقول له: لا.. فاقترب خطوة فرجعت خطوتين وقد تدفَّقت الدموع إلى عيني.. فبدت على ابتسامته إندهاشة غريبة.. فاقترب أكثر.. فرجعت أكثر وأكثر.. ثم استدرت وجريت من أمامه.

**صديقي الشاعر:**

انتهت القصة.. وقد خلفت بداخلي خرابًا كبيرًا..أخذت وقتًا طويلا في ترميمه.. ومازلت.. وترددت كثيرًا على طبيبتي النفسية.. وفي جلسةٍ جماعيةٍ للعلاج النفسي تعرفت على شاب أسباني.. وتآلفنا وتزوَّجنا.. وسرعان ما انهار زواجي الثاني.. ولكنَّه لم يخلف وراءه أثرًا يذكر ولم يؤثر على إصراري على مواصلة الحياة.. وعملت بمساعدة الطبيبة في دار للمسنين.. يعيش فيها أناسٌ حزانى هيأوا أنفسهم لمغادرة الحياة بقدر لا بأس به من اليأس.. قالت لي الطبيبة قبل أن تنصرف:

هؤلاء يبحثون عن سحابة أمل.. فكوني أنت الغيمة التي تمطر عليهم بالحبّ والدفء.. وأروع إحساس ستجدينه وأنت في قمة وحدتك وتبحثين عن أحد يسمع شكواك.. أن تستمعي باهتمام لمن له شكوى.. وستتمتعين بالعزاء الحقيقي والسلوى وأنت يائسة

تنتظرين أن يمدّ لك أحدهم يده ليساعدك فتقرِّري في لحظةٍ فارقةٍ أن تمدِّي يدك أنت فتساعدي أحدًا.. ستعرفين كثيرًا هنا عمَّا يجهله النَّاس بالحياة الذين يبحثون عن سعادتهم القصيرة بالحصول على ما يريدون.. أنك حينما تعطين تكتشفين أنَّ هذا هو الحصول الحقيقي على السعادةِ الأبدية.. الحياة جميلة وبديعة.. ونظلم أنفسنا كثيرًا حين نضيق الحياة على اتساعها ونحصرها كلها في شخص واحِد.. لمجرد أننَّا نحبُّه.

***

- هكذا كانت تخاطبني ميرين بعزيزي الشاعر.

- الجملة التي بين القوسين في بداية القصة من تمام كلامها.

# فراشات تائهة

أمي..

تبدو لى الحياة صحراءَ مديدة.. تحتلُّ فيها الشمس الحارقة كبد السّماء لا تتزحزح عنها.. حياة بلا طعم.. بلا أحلام ولا رؤى.. بلا هدف ولا مستقبل.. كياني محطم.. يقتلني العطش.. أرى على المدي المياه.. تعبت من السير خلفها.. فكلما اقتربت منها خطوة بعدت أكثر وأكثر.. وأصبح الموت هو أغلى ما أتمناه في الحياة.. لأتخلص من هذا العذاب.

أمى..

أكتب لك هذه الرسالة عبر البريد الإليكتروني برغم أننا نسكن في بيتٍ واحد.. ولا يفصل سوى جدارٌ بين حجرتينا.. ولكن المسافات لاتقاس بالقرب أو البعد.. فكم قريب وهو أبعد الناس عنا.. هل تذكرين آخر مرَّة دخلت فيها حجرتي؟ كان ذلك منذ ثلاث سنواتٍ تقريبا.. نلتقي عادة خارجها.. إمَّا على مائدة الطعام أو في مناسبات الخروج من البيت.. لا أدري يا أمي مالذي يشغلك إلى هذا الحدِّ لتتركيني وحدي في الحياة.

غدا سأتم السابعة عشر من عمري.. أرقبك دون أن تدري وأنت تعدِّين لى مفاجآتٍ كثيرةٍ لتسعدينى بها في عيد ميلادي.. آه يا أمي لو تدرين أن أروع هديةٍ يمكنك أن تأتيني بها هي أن تدخلي

غرفتي لتوقظيني من النوم.. وتمطريني بوابلٍ من القبلات.. وأنا أتمنَّع صارخة:

- حاضر يا ماما سأقوم.

وتكرِّرين نداءك.. وأكرِّر صراخي وجذبي للغطاء حتى لا يوقظني ضوء النافذة التي تفتحيها على مصراعيها متعمدة إصدار أصواتٍ عالية في حركتك لتوقظيني رغم أنفي.. ثم أستسلم في النهاية لندائك واهتمامك بإعداد حمامي وفطوري والقبلة الصباحية الودودة.. ما أروع هذا الصباح الذي حرمتني منه الأيام.. أو تأتي في بعض الليالي لتنامي بجواري كما كنت تفعلين في الماضي.. فتضمِّيني بين ذراعيك وتهمسين لي بحكايات السندريللا.. أو تملأي حياتي.. بالحب أو حتى بالقسوة.. أخشى حين تفكرين في البحث عني أنك ستبذلين مجهودا خرافيا في العثور على.. ولكن هل ستجدينني مرة أخرى؟ لا أعرف.. فأنا حتى لم أعد أجد نفسي.

**أمي..**

أنا على حافة الانهيار النفسي حتى أنَّني أوشك على الإنتحار لأتخلَّص من العذابِ الذي أعيشه.. ولكني كلما تخيَّلتُ وجهكِ الملتاع.. ودموعك الغزيرة.. وصراخك على.. وصدمة أبي.. أتراجع.. ليس خوفا على حياتي.. فلم يعد لحياتي معنى.. ولكن

خوفا عليك وعلى أبي.. فكرت كثيرا أن أجلس معك لأبوح لك بكل شيئ.. وبالفعل هممت أكثر من مرة ولكن بمجرد الجلوس أمامك كان شيئ أقوى مني يجعلني أتوقف وينعقد لساني ولا أجرؤ على التفوه بكلمة واحدة مما أعانيه.. وضاقت الدنيا على اتساعها حتى هانت على روحي وبتُّ أظن أن الانتحار سيحررها من الأسر الذي تعيش فيه.

أمي..

أرجو أن تفتحى قلبك وعقلك وتستمعى لى.. حملي ثقيل.. ناءت الرُّوح بحمله.. ولم تعد لها قدرةٍ على الصُّمود.. سأحكى لك الحكاية منذ البداية.

منذ ثلاث سنواتٍ حين رأيت أبى للمرَّة الأخيرة قبل سفره للخليج.. وقد أتى لنا بجهاز الكمبيوتر.. وجلس ليعلمني كيف أفتح صفحة المحادثة.. وكيف أضبط الكاميرا حتى يستطيع أن يكلمنا ويطمئن علينا صوتا وصورة.. وبذلك يستطيع أن يبقى أطول فترة ممكنة فى الغربة ليجمع أكبر قدر من المال ويوفر لنا حياة كريمة.. وصار يجالسنا يوميا وهو في غربته.. فيحادثنا ويضاحكنا ويطمئن علينا بالصوت والصورة.. وبعد وقت قصير أرسل لك جهازا خاصّا بك وضعتيه في حجرتك.. ومن يومها انعزلنا عن

بعضنا.. حاولت كثيرا أن أجلس معك أثناء حواركما سويا ولكنك رفضت لأسباب فهمتها بعد ذلك.. وفجاة وجدتني معزولة بين أربعة جدرانٍ مع جهاز الكمبيوتر والشبكة العنكبوتية بلا رقيبٍ ولاحسيب.

لم أكن أدري أن هذه الشاشة الصغيرة هي مجرَّد نافذةٍ إلى عالم واسع لانهائي.. وأن كلَّ القصص الخيالية التي كنت ترويها لي.. والتي كانت تأخذني إلى عوالمها الساحرة الغامضة.. أصبحت حقيقة أعيشها الآن من خلال تلك النافذة الصغيرة.. وبنزقي الطفولي غير المقدر للعواقب رحت كالفراشة أطير في كل اتجاه غير عابئة بنار قد تحرقني في لمح البصر.. كنت أطير مطمئنة فالاختباء وراء الشاشة يعطيني إحساسا بالأمان.. كنت ساذجة.. والدنيا أمامي سهلة وبسيطة.

العالم الافتراضي بدا لي أرضا خضراءَ شاسعة.. السَّماء زرقاء مبتسمة.. والزهور تهتز ضاحكة.. والعصافير تغرد وتطارد بعضها بفرح وتهوّر.. وقفت مشدوهة.. مسحورة.. أتمنى أن أحضن هذه السعادة وأحتويها فتكون لي أنا وحدي.. خطوت خطوة.. ثم خطوتين.. ثم طار عقلي فقفزت في الهواء لألحق بالعصافير فوجدت لي جناحين طرت بهما مع الطيور.. إندهشت حين

إكتشفت أن كل ما أتمناه يمكن أن يحدث.. يمكنني أن أكون قرنفلة.. أو فراشة.. أو شجرة عالية تطاول السماء.. يمكنني أن أكون الشمس.. أو القمر.. أي شيئ.. حتى لو تمنيت أن أكون الأميرة المتوجة على عرش القلوب لكنت.

إكتشفت أن كل الأشياء حولي هي في الحقيقة بشر.. تمنوا في هذا العالم الافتراضي أمنيات فنالوها.. أوغلت بنهم شديد أكثر وأكثر.. غير عابئة برسائل كانت تأتيني على بريدي الإليكتروني محذرة ومنبهة.. وتعرفت على مواقع للتعارف بين الشباب.. ودخلت بجرأةٍ غافلة وسجَّلت إسما مستعارا.. وعمرا أكبر من عمري.. وبمجرد أن سجلت في خانة النوع أنثى إنهالت على الورود والعطور والأشعار والغزل.. وطلبات الصداقة والتعارف والاهتمام بشكل كثيف ومدهش لدرجةٍ مربكةٍ.. كانت هناك طلباتٌ جريئة وبذيئة نفرت منها نفسي.. وأخرى عاطفية ورومانسية كانت تعجبني جدّا ولكن لم يكن لدي الخبرة للتعامل معها فلم تكن لي ردود مباشرة عليها حتى اكتشفت بعد فترة وجيزة جدا وببساطة متناهية وأنا لم أخطُ بعد خطوة واحدة نحو الأنوثة أن التمنع هو سرّها الساحر.. فعلى قدر تمنعك تكوني مرغوبة أكثر.. وكلما كنت غامضة.. كلما زادت جاذبيتك أكثر..

تصوري يا أمي أن تلك النافذة الصغيرة وفرت لي وبسرعة البرق كل الاهتمام الذي أحتاجه.. بكثرة فاقت الحد.. واجتاحني شعورٌ جارفٌ بالاستغناء عن الواقع الذي أعيشه.. فلم أعد أحتاج منه شيئا سوى الأكل والشرب والنوم.. فاحتياجاتي الأساسية من الصداقة والاهتمام والرعاية وفرها لي العالم الافتراضي لحد الرضا والاكتفاء.. أو هكذا تصورت.

وتكاثرت على الرسائل وصور لأصحابها لطلب التعارف والصداقة.. وتعارفت.. وتصادقت مع شباب كثر.. في حدودٍ آمنةٍ.. وسعدت بنفسي لقدرتي على السيطرة على حدود العلاقات مع الشباب.. فلا كلماتٍ خارجةٍ يمكنني أن أسمح بها.. ولا صورا مخلة يمكنني قبولها.. حيث كانت نفسي تلفظها بفطرتها النقية.

لم يغرني نداءٌ واحدٌ للسَّير خلفه.. حتى لفت إنتباهي نداءٌ مختلفٌ.. جذبنى لمنطقةٍ جديدةٍ لم أكن أتخيلها فى يوم من الأيام.. كان صوتا عذبا حنونا دافئا.. شعرت أنه الوحيد الذي يحتوينى باتزانه وعقله المتفتح.. فقد بدا اهتمامه بي مختلفا.. فبدلا من أن يكلمني عن نفسه متباهيا بها كما يفعل الشباب عادة.. كلمني عن نفسي.. وبدأ الحوار بيننا من هذا المنطلق.. فأعطاني مساحة كبيرة للحديث عن نفسي.. منحني إنصاتا متجاوبا.. وتفاعلا مميزا مع

مشاعري.. وبعد وقتٍ قليلٍ ارتبطت بوجوده ارتباطا كبيرا لحدِّ الإدمان.. في غيابه أشعر بصداع رهيبٍ.. تموت مباهج الحياة فى لحظة.. وتحيا بقدومه فى لحظة.. أدمنت حديثه وحبَّه وحنانه واهتمامه بكل تفاصيل حياتى.. لهفة طاغية أحسُّها منه لو قلت له فقط أن أصبعى جرح.. لا يفوته أن يسألني دائما.. ماذا ترتدين اليوم؟ ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ فيم تفكرين؟ إهتمامٌ محيط كالحضن الدافئ.. لم يعترف لى صراحة بحبِّه ولكن كل الدلائل كانت تشير إلى ذلك.. وبدأت لهفة طاغية تنمو بداخلي كالنار لأن يقولها تلك الكلمة السَّاحرة التي تتمناها كل البنات.. فقد ذابت روحي فيه.. وتمنيته زوجا ليمنحني في أرض الواقع كل هذا الحب وكل هذا الاهتمام.. فصرت ألمح له كثيرا.. فكان أحيانا يصمت.. وأحيانا يتجاوب معي بتحفظ.. وكلما تمنَّع أكثر زاد إقبالي عليه.. وكلما كان غامضا.. كلما زاد هوسي بسحره.

وضاق الكون على اتساعه.. وكأن الحب أصاب عقلي بلوثة.. أريد أن يعترف لي بحبِّه بأي ثمن.. في كل مرة نتقابل أظلُّ ألفُّ وأدور بالكلمات وأمنحه فرصا كثيرة ليقول إنه يحبني.. ولكن كان تجاوبه معي محيِّرا.. فلا هو يقترب ولا حتى يبتعد.. وكانت طريقته هذه تجعل نفسي تضيق.. وأصبحت عصبية جدّا.. حتى اهتديت

لأن أكلمه مباشرة وبدون مواربة عن حبي له.

فاجأني بتجاوبه معي.. بل واعترف لي بحبِّه الجارف.. والذي ملك عليه كيانه منذ اليوم الأول لتعارفنا.. و برَّر عدم اعترافه بأنه كان يخشى أن يبادئني وهو لا يعرف حقيقة مشاعري نحوه فأصدمه صدمة العمر إن كنت أحبُّ شخصا آخر.. شعرت في هذه اللحظة أن الحياة منحتني كل عطفها وحنانها.. وأن كل ما أتمناه قد حصلت عليه.. فبكيت من السعادة.. وتمنيت لو أنه أمامي فأرتمي في حضنه.. فقال لي من خلال دموعي في ذات اللحظة: وددت لو أنك أمامي فأفتح ذراعيَّ باتساع الكون لأضمَّك إلى صدري.. فبكيت أكثر.

وبدأت الشرارة الأولى بيننا.. وما أدراك بشرارة الاعتراف المتبادل للحب حين تشتعل.. كانت ممتعة.. وبديعة.. ومسكرة.. واشتعلت وتمددت بسرعة تفوق الوصف.. فكلما تذوقنا لذة للحب اشتقنا للذة أكبر.. وأسلمت له حياتى تماما.. فبدأ يجذبنى بطريقته الحنونة إلى مجالٍ أوسع.. وبدأت أحاسيس جديدة تتفتح على يديه.. مشاعر ناعمة لذيذة تخدِّر جسدي وتطير به إلى عالم جديد.. عالم ساحر آخاذ.. بدأ بكلمات غزلية رقيقة مختلفة تتحدث عن جمالي.. أسكرتني وجذبتني أكثر وأكثر.. وكلما خضت مجالا

لذيذا أتوق لمجال أحلى وأكبر.. وسيطر على شعور أن تقديم شيئ من التنازل بيننا له لن يضيرنا في شيئ طالما أن الحبَّ يجمعنا.. وأنَّه جادٌّ في الارتباط بي.

أرى عينيك يا أمي الآن على أقصى اتساع لهما من الدهشة والفجيعة.. ربما تحاولين تذكر تلك الأيام التي لم يبد على شيئ فيها.. نعم فقد كنت أعيش واقعين منفصلين تماما.. كنت أنت ترين الواقع الظاهر البريء منه فقط.. والذي كان يطمئنك على فتبتعدين أكثر وأكثر.. وكان بعدك في هذه الفترة هو مبتغاي.. فلم أعد أحتاج منك أي رعايةٍ قد تولد نوعا من الرقابة.. والتي عادة يكرهها من يمارسون شيئا يخافون أن يعرفه أحد.. وتماديت في غفلتك عني حتى صرت مخدَّرة تماما.. لم يعد لدى قدرة على مقاومته أو انتظاره لو غاب عنى.. فجَّر بسحره كل كوامن أنوثتي.. وبدأت أتلهف لأن يملؤها دون توقف.. هذا التلهف جعلتني كالأعمى الذي يسلم نفسه ليد لا يعرفها ليعبر بها الطريق.

وأخذ يدي الممدودة بلهفة وسذاجة وهو يعلم أنني مستسلمة له تماما.. كلماته عن الحبِّ والزواج زادت ثقتي به.. فتطوَّر الأمر بسرعة و بدأ يرسل لي صور رومانسية رقيقة.. ولكنها تدغدغ بلذة جسدي.. من لمسة أيادي بين حبيبين.. ونظرات ولهى.. وأحضان

رقيقة هانئة.. وبدأ يحدثني عن تفاصيلها صورة صورة.. ويسألني عن مشاعري وأحاسيسي.. وأنا متجاوبة معه بسعادة.. وفي مرَّة قال لي أنه يتمنَّى أن يضمَّني إلى صدره كما يضمُّ الحبيب حبيبته في الصورة.. طرت في الفضاء كالفراشة من روعة كلماته التي أصابت روحي فحلقت فرحة سعيدة.. وأنا أتمنى نفس الأمنية وأؤكدها له.. ثم تنتهي المحادثة بيننا بمفاجاة يقول أنه يعدها لي عن صور أروع وأجمل.. ولكنه يخشى أن يرسلها حتى لا أفهمه بالخطأ.. فأصرُّ على أن يرسلها لي.. مؤكدة ثقتي به.

وأنتظر الصور على أحرّ من الجمر.. فإذا بها صور لقبلاتٍ حميمة.. كانت هذه أوّل مرّة أرى مثل هذه الصور.. تفاجأت.. شعرت بنوع من الصَّدمة والارتجاف.. أغلقتها بسرعة.. ثم قاومت خوفي وارتجافي ففتحتها.. وتأملتها فإذا هي لذيذة محبَّبة حتى تمنيت لو كنت أنا بطلة الصورة وهو فارسها.. وأبحث عنه فلا أجده.. فأكتب له أنني أنتظره وأن غيابه حارق.. فيأتيني مبرِّرا غيابه بخوفه من ردِّ فعلي على الصور.. ويخشى أن أسيئ الظنَّ به.. وأنه ما أرسلها إلا لتعبر تعبيرا دقيقا عن مشاعرَ يحملها لي.. فأؤكد له أن وجوده هو أروع شيئ في حياتي وغيابه يعني موتي.. ونتحدَّث قليلا ثم ينسحب حديثنا إلى الصور واحدة واحدة..

فيصف لي مشاعر القبلة بتفاصيل جذابة.. ومشاعر المرأة حين يقبلها حبيبها.. ومشاعره كذلك.. ثم يفاجئني بالانصراف وأنا في دوَّامة النشوة.

وتدفقت الصور في ذات الاتجاه متدرجة إلى أفاق أوسع وتطوَّرت معه المعاني المخبؤة خلف الكلمات.. وأحاسيسي تصعد في اتجاهٍ واحد.. حارق ملتهب.. وصارت المحادثة بيننا تسوقني إلى متعة إستثنائية يأخذني فيها إلى عوالم لم أدخلها من قبل.. حتى صرت كالمجنونة خاصَّة حين ينهي المحادثة بيننا فجأة ويتركني.. لأدخل في دوامةٍ عصبيةٍ كالمدمن الذي يصرخ دون جدوى.

كنت قد استويت.. وتهيَّأت.. ورغبت بكل ذرَّة في جسدي أن أبلغ قمة الجبل الذي يجذبني إليه.. فحدَّثته بجرأة عن شعوري وعاتبته أنه يتركني حائرة عطشي فأرسل لي مباشرة فيلما صغيرا لا تتجاوز مدته ستون ثانيةٍ ولكنه فجر بركانا بداخلي.. ألقى بكل حممه وجمراته في كل ذرَّة من جسدي الغضِّ وسيطر عليه بقوةٍ مخيفةٍ وجذبني بعنفٍ إلى قمَّة الجبل وما إن اعتليتها حتى ترنحت وسقطت من أعلى القمَّة أهوي وأهوي إلى مكان بعيد سحيق.. فصرخت باكية من الخوف وارتعش جسدي وتشنجت أطرافي وسقطت مغشيا على.

كانت هذه أول مرة أشعر فيها بحجم الخراب المخيف الذي حلَّ بروحي.. وقفت طويلا تحت الماء وإحساس يسيطر على نفسي بأنني غرقت في بحر من الوحل والنجاسة.. وأصابتني لوثة فرحت أغسل جسدي مرَّاتٍ ومرَّات.. وبعدها أستغفرت الله وصليت وبكيت بكاءً حارًا صادقا.. ثم نمت نوما عميقا متصلا وددت لو أنه كان الموت.

بمجرد أن دبت فى الحياة مرَّة أخرى وجدتنى وبدون تردُّدٍ أقفز داخل العالم الافتراضي لأبحث عن شيطانى الحبيب.. لم يكن موجودا.. جلست فترة طويلة حتى وصل.. وحينما دخل على الماسنجر صرخت في وجهه كالمجنونة وتغاضبت معه وعاتبته عما فعله بي.. فاعتذر وأخذ يكرِّر اعتذاره مرَّاتٍ ومرَّات مؤكدا أنه أرسل لي ذلك الفيلم بناءً على طلبي.. ثم اعتذر مرَّة أخرى قائلا أنه سيختفي من حياتي إلى الأبد.. وخرج من المحادثة شعرت أنه تركني في وسط صحراء شاسعةٍ لا أعرف لي فيها هدفا ولا اتجاها فبكيت بحرقةٍ.

كتبت له كثيرا أعتذر له مجددة ثقتي به وأن عليه أن يعذرني لردَّة فعلي.. وبعد عدَّة أيام تعطف علي.. وتقابلنا.. وأتى لي بكل رقته وحبِّه وحنانه.. ولكن مع وجهٍ جديدٍ ومباشر.. فقد قال لي أن

علينا أن نتهيَّأ للزواج.. وأن الصور التي يرسلها لي ما هي إلا دروسٌ لنتعلم كيف نستمتع بالحياة بعد الزواج.. وأنه لم يلمسني حتى يكون ردُّ فعلي عنيفا هكذا.. هو مجرد عالم افتراضي فلا ضير أن نتعلم منه شيئا.. ووافقته بلا تردُّدٍ.. فقد استسلمت له تماما.. وتركت له نفسي يفعل بها ما يشاء في مقابل ألا يتركني.. فقفز قفزة جريئة هائلة وطلب مني دون أدني حرج أن نتحادث على الكاميرا.. وفهمت البعد الثالث في طلبه.. ومع ذلك وافقته دون جدال.. وهيئت له الكاميرا في التوِّ واللحظة ولم يعتريني لحظة تردُّد واحدة برغم طنين الأصوات التي كانت تصرخ في أذني تحذرني وتذكرني.. ولكنني أخمدتها جميعا بهزَّة قوية من رأسي.. ونفذت كل ما طلبه مني.

آهٍ يا أمِّي.. غرقت في دوَّامةٍ رهيبةٍ.. و دخلت في دائرة لا بداية لها ولا نهاية.. ظلت تلفُّ وتدور بي بعنفٍ وتجذبي لهاويةٍ لاقرار لها لثلاث سنواتٍ.. قد تتساءلين.. ألم أفكر في مقاومتها؟ لم أفكر يا أمِّي.. فلم يكن بي قوة ولا رغبة ولا دافع في مقاومة غرقي.. كأنني كنت أنتحرُ بطريقةٍ مختلفةٍ.. فقد فقدت براءتي وطهارتي.. وركبني اليأس وأحاط بي حتى صار كل شيئ في الحياة بلا معني.. وعندما تصير الحياة بلامعني ولا يجدي الماء حين نتطهر به.. نحن إلى الموت

ونرى فيه الخلاص.. ولكم تمنيت كثيرا وأنا غارقة في دوَّامة الإثم أن أموت وتقذفني ملائكة العذاب في جهنم لأتطهر من دنسي.

هل جربت مرة يا أمي طعم الذبح.. أن تتنفسي فلا يدخل الهواء إلى رئتيك.. تتهاوى كل قواك فتسقطين دون مقاومة.. وتتخدر أطرافك فتحاولي تحريكها عبثا فلا تستطيعي.. أنا الذبيحة يا أمي.. أنا التي أتشحط في دمائي بوهن واستسلام.. خواء كبير يملؤني وأشعر أنني لاشيئ.. أتطلع بعيني الواهنتين إلى أيام عمري فلا أجد فيه إلا الدَّنس والقذارة.. تتحجَّر دموعي فلا أستطيع حتى البكاء على دمي المسفوح.. على زهرة أيامي الأولى في الحياة والتي قطفت ببشاعة وديست أوراقها الوردية بلا رحمة.

لم يبق أمام عينيَّ الواهنتين إلا الضَّوء الصَّغير في آخر النفق.. أتمنى مع كل عجزي أن أصل إليه.. نورا كان أم نارا.. فهل تمدِّين يدك إلي؟ إشتقت للمستك.. إشتقت لغضبك.. اشتقت لك.. يا أمِّي.. إشتقت لك يا أمِّي.. إشتقت.. لك.. يا.. أمِّي.

***

# الناب الأزرق

نسمة لطيفة تمرُّ على وجهى تفرش جوًّا من الرومانسية الحالمةِ في قلبى.. شعورٌ رائعٌ لاينقصه سوى حبيب.. أتلفت حولي متسائلة متى يأتي الحبيب المجهول؟.

رأس البرِّ تتحوّل فى اللّيل لساحرةٍ تأخذنا فى عوالمَ استثنائيةٍ غامضةٍ وجميلةٍ.. تتلألأ الأضواء فى كازينو هاواى المطلّ على شاطئ البحر في المنطقة الأولى قرب التقاء النيل بالبحر.. المكان مزدحمٌ حولنا ولكنّى أحسُّ بشعور مختلفٍ اللّيلة.. ربما ينسجم مع صوت كاظم الساهر الصَّادر من السماعات حولنا وهو يغنّى بإحساس حالمٍ ( الليلة إحساسي غريب.. عاشق وأنا مالى حبيب ) شعورٌ محلق يجتاحني.. يجعلني بلا وزن تقريبًا مثل هذا القلب الممتلئ بالهليوم المعلق فى السقف ينتظرُ لحظة حريةٍ فيطير فى السماء ليتوه بين النجوم الساهرة.

أتطلَّع في سأم لأبى وأمي يتبادلان الحديث حول مشكلةٍ عائليةٍ تشغلهم منذ عدّة أيامٍ.. أخي الصغير يلهو بلعبةٍ اشتراها له أبي.. وأنا أشعر بفراغ كبير ووحدةٍ تحيِّر قلبي.. أتلفَّت حولي.. ترى بماذا يتهامس العشاق؟ فتتحوّل الهمسات الناعمة إلى نظراتٍ هائمةٍ غارقةٍ في لذةٍ لانهائيةٍ.. أتنهَّد بعمق حارق.. الكازينو حديقة مترعة بقصص الحبِّ.. نظراتٌ ساهمة.... ولمساتٌ تطرب

مشاعري بالشوق لها.. أتنهّد مرة أخرى بنفس الحرقة وأنا أشعر بوحشةٍ في جنة الحبِّ من حولي.. على ماذا يتضاحكون؟ بماذا تشعر الحبيبة حين يلمسها الحبيب.. حين يحضن يدها بكلتي يديه ويضمهما؟ هل تذوب كما تذوب روحي من مجرَّد رؤية المشهد فقط؟ أتلفت مرَّة أخرى فتقع عيوني على الزهور المتناثرة في أرجاء المكان فيغمرني شعورٌ حالمٌ بحضور مشاهير العشَّاق متلبِّسين في صور هذه الزهور.. ربما كانت هاتان القرنفلتان هما روميو وجولييت.. أو ربما.. فجأة أضاءت شاشة هاتفي بلونها الفيروزي معلنة وصول رسالةٍ بالبلوتوث.. «هل تسمح أجمل أميرة في الكون باللِّقاء.. تلفتي حولك.. قلبك دليلك».

تلفتُّ حولى وقلبي يخفق بشدَّةٍ من هول المفاجأة والسَّعادة الغامرة.. حتى وقعت عيناى عليه.. فارسٌ في منتهى الوسامة والأناقة أشار برأسه بهزَّة طاووس مبتسما ابتسامة غاية في الجاذبية.. خفق قلبي مرتعبًا.. التفتُّ إلى أبى وأمى مازالا يتناجيان.. التفت مرة أخرى إليه كان يتراجع للخلف بخطوات وئيدة فاردا ذراعية يدعوني للإسراع إليه.. قلبي يكاد ينخلع من صدري.. قمت كالمنوِّمة وبهدوءٍ سرت إليه وكل خلية في جسدي تهتزُّ.. حتى خرجت من الكازينو فوجدته يقف بجوار سيارةٍ فاخرةٍ.. فتح لي

الباب وانحنى مبتسمًا.

جلست فى سيارةٍ كلُّ ما فيها يوحى بالفخامة.. عندما أدار المحرِّك أغلقت النوافذ بتلقائيةٍ فسكت الوجود كله.. وتسلَّل إلى كلِّ ذرَّةٍ فى كياني موسيقى هادئة حملت جسدي كله للطَّرب صاحبها عطرٌ يملأ الجو مع تيار هواءٍ باردٍ أسكر روحي.. أغمضت عينيَّ محلقة حين همس لى بصوته الدافئ:

- إلى أين تحبُّ أميرتي أن تسافر؟ إلى نجمة الحبِّ؟ أم إلى شواطئ القمر؟ أم تفضِّل أن نتوه فى الفضاء إلى الأبد؟.

انطلق بالسيارة بسرعة وبحديثٍ ودودٍ أرخى على روحي جوًّا من الألفة والطمأنينة حدَّثني عن نفسه وأحزانه.. وبحثه الدائم عن حبيبة العمر.. وأن كل الفتيات حوله لم تستطع ولا واحدة أن تملأ روحه حتى رآني.. أيام طويلة ظلَّ يرقبني حتى تأكَّد من صدق مشاعره.. كيف كان يعاني مخافة أن يتحطم حلمه.. حدّثني كثيرًا كأنَّه يعرفني منذ أزمان بعيدةٍ.. بادلته ثقة بثقةٍ فرحت أحدِّثه عن وحدتي وشجوني.. وشعوري الغامض بوجود حبيب في مكان ما قريبا مني.. وانتظاري الملهوف لتلك اللحظة الجميلة.. كنت سعيدة.. في غاية البهجة والطرب.. دار بي في كلِّ شوارع رأس البرِّ الجانبية والرئيسية.. المظلمة والمضيئة.. لم أنتبه للشّوارع ولا

للنَّاس فقد كنت أعيش أروع لحظةٍ في حياتي حتى توقَّف بالسيَّارة.

أفقت على صوته يقول:

- هيه أين أنت؟

تلفتُّ حولى فوجدتنى فى مكان مظلم موحش وناءٍ تذكَّرت أبى وأمى خفق قلبى قلت:

- أين نحن؟

قال مبتسمًا:

- على شاطئ دولة الحب..

تلفتُّ حولى فوجدت أضواء بعيدة ارتجفت خائفة قلتُ:

- أرجوك أعدني..

طمأنني بصوته النَّاعم قائلا:

- اطمئني سنجلس قليلا ونعود.

ثم بدأ يحادثنى ويضاحكني ولكنَّه لم يستطع أن ينتزع الخوف من قلبى كنت أختلس النَّظر إلى الأضواء البعيدة خلفنا.

تسللت برودة إلى جسدي كلِّه عندما شعرت به يلمس يدي

وقبل أن تصل يدي إلى شفتيه ليقبِّلها كنت قد جذبتها بسرعةٍ.. وقلبي يخفق بشدَّةٍ قلت له:

- أرجوك أعدنى من حيث أتيت..

أعتذر بلطفٍ وقال:

- لم أكن أقصد فأنت جميلة لحدٍّ خارج المسموح به.

ابتسمت باضطرابٍ ردًّا على مجاملته.. هذه المرَّة أمسك يدي بقوة أكثر وجذبني إليه وطوَّقني بذراعه وانهال على وجهي بقبلاتٍ وحشيةٍ متواصلةٍ.. دفعته بكلِّ ما أستطيع من قوَّةٍ وجسدي كله ينتفض من الخوف.. قال لي لاهثا:

- ماذا تريدين؟ لماذا أتيت معى؟ بناتٌ كثيراتٌ يتمنين أن يكن في مكانك الآن لاتعانديني.

مد يده مرة أخرى ليمسك بيدي فصرخت بكل قوتي مستغيثة في فضاء مظلم ساكن كأنه لايأبه لشيئ.. وفجأة انفتح باب السيَّارة من جانبه لتنشقَّ الأرض عن يدٍ قويَّةٍ تمتدُّ إليه فتسحبه من السيَّارة وتلقيه خارجها.. وتقوم معركة بينه وبين شخص لا أتبينه تبادلا فيها اللكمات والسباب ثم سرعان ما تهاوى فارسي ساقطا على الأرض أمام لكماتٍ الغريب القوية.. وفى لحظة قام من على

الأرض متراجعا وهو يمسح دماء سالت من شفتيه ودار حول السيارة ثم فتح الباب الذى أجلس بجواره وجذبني من شعري بقسوة خارج السيارة ثم قذفني إلى الأرض صارخا:

- خذها.. إشبع بها إنها لا تساوي خرقة.. غيرها كثير.

ثم ركب سيارته وانطلق.

ظلام هائل يحوطني.. وخوف وغربة وحزن.. لا أسمع سوى صوت أمواج البحر الرتيبة الشاحبة من خلفي.. صوت الشيطان يتردد صداه في أذني: اشبع بها إنها لاتساوي خرقة.. أجهشت بالبكاء من ذلي ومهانتي.. أين أنت ياأمي؟ كيف فعلت ذلك بنفسي؟.

شعرت باقتراب الغريب.. التفتُّ إليه بحذر.. لا يبدو من ملامحة شيئًا واضحًا سوى هامته الفارعة.. وقفت بسرعةٍ ألملم نفسي متراجعة ناظرة إليه برجاءٍ:

- أرجوك اتركني لحال سبيلي.

قال بصوت واضح وحاسم:

- لا تخافى تعالي أوصلك إلي أوَّل الطريق.

سرنا فى الطريق الطويل المظلم من شاطئ (١٠١).. تلوح من

بعيدٍ أضواء الطريق العمومى.. كنت أسير خلفه بخطواتٍ مضطربةٍ.. أتلفت حولي من الرهبة.. الخوف يحاصرني.. الظلام خلفي.. والغريب أمامي.. خطوة واحدة بيني وبينه تكفيني للشعور بقليلٍ من الأمان.. مع طول السَّير واقتراب الأضواء بدأت سكينة وطمأنينة تلفني غير أنَّني لم أتخل عن حذري.. كنت أتجنَّب رفع نظري لأتبين ملامح الغريب خجلا من موقفي المؤسف الذي وضعت نفسي فيه.. حتى وصلنا لبداية الطَّريق العمومي حيث النور والنَّاس والأصوات والسيارات فتنفست الصعداء.. التفت إليَّ الغريب وقال بصوته الواضح القويِّ:

- هل تستطيعين العودة من هنا؟.

تلفت حولي متجنبة النظر إليه.. وقلت هامسة:

- أنا غريبة ولا أعرف طريق العودة..

اختنق صوتي بالبكاء:

- تركت أبي وأمي وأخي الصغير.. لا يعلمون أين أنا.. لعلَّهم في منتهى القلق.

قال بصوتٍ فيه رقة حزينة:

- سآخذك إلى حيث تجديهم إن شاء الله.

أمام الكازينو رفعت وجهي لأتطلع إلى الغريب لأشكره.. تلوح في وجهه ملامح رجولة بادية.. وسمرة شقاء تعلو وجهه.. وعينان سودوان براقتان بغموض مبهم آخاذ.. بحروف متناثرة غير واضحة شكرته.. ابتسم فبدت في عينيه عذوبة ساحرة:

- سأنتظر هنا حتى أطمئن عليك.

هززت رأسي شاكرة واستدرت منصرفة إلى الكازينو.. وبعد خطوتين سمعت كأن صوته ينادي.. التفت إليه فقال بنفس الابتسامة الجميلة:

- انتبهي جيدا قبل أن تقتحمي مالا تعلميه.

في الكازينو.. مازال أبي وأمي يتناجيان لم ينتبها إلى غيابي.. وأخي جلس في حجر أمي وقد غلبه النعاس.. وحديقة العشاق ليس فيها جديد.. نفس الهمسات واللمسات ونظرات العيون.. جلست واجمة أتذكر ذلك الغريب الذي أنقذني.. لم أر ملامحه بما يكفي.. ولكن ظل ابتسامته المطمئنة مازال عالقا بذهني.. أتلفت حولي.. فإذا بالشاب الأول يقف متكسرا مائعا يستند إلى كتف صديق له كأنه يهمس له بشيئ عني وهو ينظر إلي باستهزاء انتفض جسدي فحولت بصري بسرعة لسقف الكازينو.. متحاشية النظر إليه.. مازال القلب الممتلئ بالهليوم ملتصقا بالسقف.. يحاول

البحث عن منفذ ليطير في الفضاء المظلم.. ظلت عيناي معلقة به لفترة وهو يتأرجح بين فتحات السقف الخشبية كأنه يبحث عن فرجة يطير منها.. ارتج جسدي فجأة ونهضت واقفة واتجهت ناحية بالونة الهليوم باندفاع فاصطدمت بالنادل الذي كان يحمل صينية عليها أكواب كثيرة فتناثرت على الأرض محدثة دويا عاليا لفتت انتباه الجميع وبإصرار عنيد تحركت نحو القلب الممتلئ بالهليوم لم أأبه لصوت أمي يناديني ولا الأصوات المتداخلة حولي.. ارتقيت كرسيا ومنه إلي منضدة عليها مأكولات ومشروبات ركلتها بأقدامي وقفزت عاليا بقدر ما أستطيع حتى أدركت بأطراف أصابعي الخيط المدلى من قلب الهليوم الذي أوشك على الضياع في الاتساع المظلم في الفضاء.. أخذته وسقطت على أرض سقطة مروعة وانطلقت صرختي من الألم.

الهرج والمرج ملأ المكان.. فتحت عيني فوجدت أمي جالسة تبكي بجواري وأبي يصرخ طالبا المساعدة.. ابتسمت حين شعرت ببالونة الهليوم في حضني.. ضممتها بقوة أكبر.

قال أحدهم بسخرية:

- كل هذه الضجة من أجل بالونة الهليوم.

ثم ضرب كفا بكف وهو يضحك:

- ما أكثر بالونات الهليوم.. دعيها تطير وستأتي غيرها.

جاءت عربة الاسعاف وحملتني وسط زحام واهتمام من الجميع.. لمحت وجه الشاب المائع وقد بدا على وجهه شحوبا ممزوجا بالاضطراب.. التفت مولية وجهي للجانب الآخر فلمحت الغريب.. وعلى وجهه ابتسامة دافئة منحتني قدرا جميلا من سعادة استثنائية داخلية.. اندهشت لوجوده الجميل ثم ابتسمت له.. تاركة بالونة الهليوم تطير بحرية.

***

# الفهرس

إهـداء ..... ٣
هان الود ..... ٥
ميريـــــن ..... ٥٣
فراشات تائهة ..... ٨٣
الناب الأزرق ..... ٩٩
الفهرس ..... ١١١